DOAA ABD ALLAH

إهداء..

إهداء إلى مَن علَّمني ألفا باء بلاغة، إلى مَن كان سبب عشقي لهذه الدرَّة الغالية "اللغة العربيَّة"، إلى أستاذي الغائب الحاضر دومًا:

د. هاني سعيد

إهداء.. إلى أمِّي وأبي سر سعادتي، إلى ريحانة قلبي صغيرتي "حُور".

إهداء إلى كلِّ فتاة انجرَفت خلف هذا العالم الأزرق، باللهِ استفيقي، فقد لا يبعث الله لكِ قارب النجاة كذكرى، فلا دموعك ستُبحر بكِ إلى الشاطئ، ولا الندم سيكون مرساة النجاة..

مقدمة..

كانت حياتي منتظمةً كتلك التفاعيل العَروضيَّة، تلك التي لا يعتريها زحاف ولا علَّة، نعم.. كتلك التفاعيل التي درستها في الجامعة، كان بإمكانك أن تنسج على مِنوالها أجملَ أبيات الشعر..

وهل هناك حياة أجملَ من تلك التي يحياها الإنسان على طاعة الله، من أجل رضاه؛ إنَّها الحياة التي يحياها الإنسان لأجل الله فقط.

هكذا كانت حياتي من قبل، كنت لا أبتغي سوى الله سبيلًا، ربَّما كنتُ أودُّ أن أكون أنا أيضًا رابعة العَدويَّة حينما قالت:

كُلُّهُمْ يَعْبُدُونُ خَوْفَ نَارٍ وَيَرَوْنَ النَّجَاةَ حَظًّا جَمِيلَا

لَيْسَ لِي فِي الْجِنَانِ وَالنَّارِ حَظٌّ أَنَا لَا أَبْتَغِي سِوَاكَ سَبِيلَا

قبل عام منَ الآن، كانت أيَّامي كلُّها ترانيمَ إيمانيَّة، كنت لا أجد نفسي إلَّا هناك، بين السَّجَّادة والمصحف..

وها أنا اليوم لا ألوم حظِّي؛ بل ألوم نفسي الأمَّارة بالسُّوء، أتمَنَّى أن لو تعود مُطمئنَّة كما كانت..

الفصل الأوَّل

"أصبحنا نرى العالم بضَغْطة زرٍّ واحدة؛ لكن لا يُمكنُنا أن نرى مِرآة أرواحِنا التي صَدِئت، وما أمكن صَقْلها مرَّةً أخرى".

يوم السادس من مارس عام (٢٠٣٧)

أسمع طرقاتٍ خفيفةً صادرة من مُنتصف باب الشقَّة، فأُهرِول مُسرعةً ناحية الباب لأرى مَن يَكمُن هناك خلفَ الباب؛ إنَّها نُور صديقة فريدة ابنتي، تلك الشقية لم يزدد وزنها بعد، نحيفة بلون القمح، وعيناها مخلوطتان بماء العسل... استقبلتُها بحَفاوةٍ شديدةٍ، ثمَّ اصطحَبْتُها إلى غرفة الضيُوف، وحوَّلْت وِجْهتي ناحِية غرفة فريدة، طرَقْت الباب عدَّة طرقاتٍ ليأتيني صوت فريدة:

- ماذا هناك يا أمِّي؟

ضغَطْت على مَقبَض الباب بإحدى راحَتَيَّ، لكنَّه أبى أن ينفتح، لأنَّه -كالعادة- قد شُدَّ عليه بأقفالٍ عدَّةٍ.

أسرَعَت فريدة لتفتح لي الباب، ليأسِرني وجهُها الملائكيُّ، وثغرُها الذي أسفَر عن أجمل ابتسامةٍ في العالم أجمَع، قبَّلَت يدي بعد أن طبعْتُ أنا قُبلةً حانِيةً على رأسها، قلت: صديقتكِ نور تنتظرك هناك في غرفة الضيُوف.

- أصِدقًا تتحَدَّثين يا أمِّي؟

- لا، كان لدي فراغ من مسؤوليَّاتكمُ التي لا تنتهي، فقلت أمْزَح مع صغيرتي قليلًا! هيَّا أيَّتها المعْتوهَة إلى صديقتكِ، وأكرمي نُزُل ضيفتكِ.

خرجت فريدة منَ الغرفة مُسرعةً من فرْط سعادتها بزيارة نور المُباغِتة، ولم تنتبه مُطلقًا إلى حسابها الفيسبوكي الذي تركَتْه مفتوحًا..

استوقفني منشور جذب انتباهي، فرُحْت أقرأه، لتجذبني عاطفةُ الأمِّ إلى الاِطمئنان على ابنتي في هذا العالم المُثير للشفَقَة، المْلآنِ بالقَذارَة، ورُحْت أتحَسَّس بريد رسائلها بأناملي المُرتَجِفة، وما إن وقعَتْ عيناي على تلك الرسالة الواردة من ذلك الشابِّ الذي يُدعى "كريم محمد" حتَّى تمَلَّكني الذُّعْر، وأسرَعْت في جذب المُحادَثة منذ البداية والتي كانت كما يلي:

ألقى السلام، لترُدَّ ابنتي: وعليكمُ السلام.

لم يُمهِلْها، وباغَتَها بالسؤال المُعتاد قائلًا:

- أيُمكِنُنا التعارُف؟

- ولِمَ من الأصل؟

- ربَّما القدر أراد ذلك فساقني إلى هنا.

- فريدة فارس..

- شرُفت بكِ يا فريدة، جميل هو اسمُك، ينُمُّ عن أشياء كثيرة ربَّما أخبرها فيما بعد، وكما أعلم أنَّ لكُلٍّ منِ اسمه نصيبًا.. كم عمرك يا فريدة؟ وما نوع دراستكِ؟

- عمري عشرون عامًا، أدرس في كلِّيَّة العلوم، قسم كيمياء.

- أصِدقًا تقولين؟! يا لرَوْعة الأقدار! فأنا أيضًا كيميائي مثلك تمامًا، لم أكن أعلم أنَّ التفاعُلات الكيمائيَّة يُمكنها أن تحدُث مُصادَفة دون سابِق إعدادٍ لتجاربَ عدَّة.

- ماذا يعمل والدكِ يا فريدة؟

- مُهندس، إنَّه مُهندس مِعْماريٌّ.

والمحادَثة تطول.. تطول جدًّا، لكن بدون أيَّة تعَدٍّ، لكنَّها تنُمُّ عنِ الإعجاب المتبادَل بين الطرفين، وحَبائل الشيطان الموصولة، تلك الحبائل مُوصَدة بأغلال من المعاصي، نقطة بدايتها تكمُن هناك في كلمة السرّ: "أيُمكِن أن نتعارَف"، ويأتي على إثرها إنذار الهلاك وهو: "نعم يُمكِن".

- كيف حالك يا فريدة؟

- على ما يُرام، وأنت كيف حالك يا كريم؟

- ألستِ بخير؟ إذنْ أنا بخير.

تقول ذكرى مُعَقِّبة على ما تقرأه:

"من هنا بدأ يتخَلَّل إلى عاطفةَ الأنثى، ألا إنَّ عاطفة الأنثى مُرتبطة ارتباطًا وثيقًا بشيْءٍ اسمُه الاِهتمام ثمَّ الاهتمام".

- لست أدري كيف أصِف لكِ ما أشعر به، لكنَّني أشعر بأرْيَحيَّة شديدة جرَّاء الحديث معكِ، مُمْتعة جدًّا حروفك المُتناثِرة أمام عيني كما الدُّرَر.

تمْتَمَت ذكرى:

"يبدو أنَّ ابنتي وقعت في حَيْرة ما بين الردِّ والصمْتِ، لكنَّها آثرَتِ الصمت".

تُحدِّث ذكرى نفسها كالذي أُصيب بالحمَّى فراح يهْذِي:

"لم يُمهِل ثورَتها الأنثويَّة لتَهدأ قليلًا، فراح يدُقُّ على الحديد وهو في أوْجِ الْتِهابِه، فباغَتَها بكلماته تلك".

- فريدة.. اسمك ينُمُّ عن أنَّك عُمْلة نادرة في بنك النساء، حديثك عذْبٌ ملح يُهدْهِد أنَّات قلبي، عقلك وما أدراك ما عقلك! كما لو أنَّكِ أُوتيتِ جوامع الرزانَة والحكمة.. دعيني أُخبرك بصدق مشاعري، وما يختلج قلبي تجاهك من صيحات عظيمة هي بوادِر حُبٍّ شامخ حدَّ السماء، لقد وقعتُ في مملكة حبِّك أسيرًا، فأكرِمي أسرَاكِ!

تتخيَّل ذكرى ابنتها بعد وقع هذه الكلمات على قلبها، فتقول:

"أظنُّ بعد تلك الرسالة تلَجَّمت صغيرتي ساعات وساعات، هاج قلبها الراكِد في سلامٍ، عكَّر صفوَه ذلك الوَغْد على حين غفلةٍ منها، في تلك اللحظة اكتَفَتْ هي بإرسال قلوبٍ حمراءَ.

لقد وقعت فريدة في الفخِّ الذي نُصِب منذ الأزل، وبدأت ترُدُّ بجُرأةٍ أكثر، وتُفصِح عن مشاعرها التي -ولا شكَّ- مجرَّد تأثير المخدِّر الكلامي الذي أصابها به ذاك المُدَّعي الحبَّ..".

ترى ذكرى أنَّ كريم أصبح جريئًا، فتقول:

"كان قد تناول جُرْعَة دسِمَة من الجُرأة، فراح يصَوِّب سِهامه الذكوريَّة بتركيزٍ شديدٍ، وإتقان مجيد لِاستِمالة قلب تلك العذراء البراء "ابنتي"..

- كيف حالك يا فريدة القلب؟ اشتقتكِ كثيرًا؟
- وأنا أيضًا.

تنَفَّست ذكرى الصُّعَداء، وهمْهمَت قائلةً لنفسها:

"لقد وقعتِ الفريسة في شِباك الذئب، ليُداهِمَها بأهمِّ مُتطلَّباته وأوَّلها!".

- فريدة.. أريد أن أطلب منكِ شيئًا، لكن أخشى أن تُقابلي طلبي بالرفض.
- اطلب وسأفعل.
- لا أظنُّ، لا بدَّ أنَّك سترفضين.
- قلت سأفعل.
- أريد أن أراكِ، أعني أن تُرسلي لي صورةً لكِ، أتمَنَّى أن أرى

تلك الفتاة التي أُغرمت بها غيابيًّا.

- مُحال! مُحال أن يحدث شيئًا كهذا!

- ألم أقل لكِ؟! كنت أعلم أنَّك ستطعنين قلبي بأوَّل سلاح تمتلكينَه.

- لم أقصد هذا، ولكن...

- ولكن لا يُمكن أن تثقي بي، أليس كذلك؟

- نعم ليس كذلك، وإنَّما...

- وإنَّما ماذا؟ لو كنتِ تُحبّينني صدقًا، وكان لديكِ مِثقال حبَّة من ثقة، لما تردَّدتِ لحظةً.

تتخَيَّل ذكرى ردَّ فعل فريدة في هذه اللحظات، فتُحَدِّث نفسها:

"تصمُت فريدة، لقد ألجَمَها بكلامه، كما أحاطها تمامًا بشِباكه العاطفيَّة، وأظنُّها سألت: ولمَ لا أفعل؟ ماذا يَضيرني إن فعلت؟ وعلى كلٍّ فأنا له وهو لي، وهذا من حقِّه".

أرسلت فريدة تلك الصورة التي التقطْتُها لها ونحن نتنَزَّه هناك على الشاطئ، وما هي إلَّا لوْحة فنِّيَّة أُبدِعت بطريقة هندسيَّة دقيقة تنُمُّ عن قسمات أنثى بارعة الجمال، ولا أظنُّه سينبَهِر، بل أنا مُتأكِّدة من ذلك".

- كما لو أنَّ طيفًا من خيالي ساقني إلى عالمٍ آخرَ لا يُوجد به شيْء بيْدَ أنَّه الجمال، وما كان هذا الجمال إلَّاكِ أنتِ.

أنت تُبالِغ يا كريم، ليس إلى هذا الحدِّ!

- بل إلى الحدِّ الذي لا حدَّ له.

قامت ذكرى تذْرَع الغرفة من فرْط صدمتها، تبكي، تحَدِّث نفسها بصوت مُتلَعْثِمٍ:

"المحادَثة قطعت أنفاسي مع أشواطها الطويلة، وكلِماتها المتأجِّجَة التي تنُمُّ عن عاطِفة ساذِجَة، بيْدَ أنَّها أسْفرَت عن أنَّ فريدة لم يعُدْ لها أي زرٍّ تحَكُّم يُمكن أن تستعيد به قلبها مرَّةً أخرى بضَغْطة واحدة على ذلك الكابِح".

تمسح دموعها، تستأنِف الحديث مع نفسها ثانية:

"يبدو أنَّ فريدة أحبَّتْه صدقًا، فالمرأة تعشق دون مُقابِل لهذا الحُبِّ، يكفيها فقط أن يزيد ذاك المحبوب رصيدها من الكلمات العاطفيَّة، وأن يعزِف على أوتارها القلبيَّة لتستأثِرَها تلك المقطوعة المختَلَقة، لتنكَبَّ هائمَةً على وجهِهَا في تلك الغابة الموحِشَة التي تُدعَى: الحُبّ".

- فريدة.. أظنُّك شقْراءَ الشعر، أليس كذلك؟

- كيف عرفتَ ذلك؟

- واضح جدًّا من تلك العيون الخضراء، وتلك البشرة التي تُنافِس الحليب على لونه، والنتيجة التي خرجتُ بها من تلك التأمُّلات

التي طالت في قسمات وجهك وملامِحك الدقيقة الرقيقة أن كان لون شعرك أشقَر.

- صحيح ما توَصَّلتَ إليه.

- أتمَنَّى أن أراه يا فريدة، صدقًا سيحدُث لي شيْء إن لم أرَه.

مُحال هذه المرَّة! فلقد جارَيْتُك فيما يُمكِن، أمَّا أن أضرِب بحِجابي عُرْض الحائط وأبدو أمامك امرأةً سافِرةً، فهذا بعَيْنه الجنون.

- لست أدري متى ستثقين بي! ماذا علي أن أفعل؟! أقسِم لكِ بكُلِّ الأيْمانِ أن سأحذِفها على الفوْر كما حذَفْت سالِفَتها..

تتأسَّى ذكرى لِمَا وصلَتْ إليه فريدة، فتُغَمْغِم:

"ويجاري الحَمَل الذئبَ ظنًّا منه أنَّه بفعلته تلك قد نجا من مَكرِه، وتنْصاعُ فريدة لكُلِّ ما يطلبه هذا الوَغْد الذي أنشَبَ مَخالِبه الشيطانيَّة ليُدَنِّس طُهر تلك المَصونَة، ويُودي بها إلى امرأة عاهِرة، وفي نهاية الأمر وآخر ما وقعت عليه عيناي من تلك المحادَثة الصمَّاء الغبْراء، أن قد طلب لقائها غدًا في شقَّته -غبَّر الله وجهَه-!

الحمد لله الذي يُرسلنا في الأوقات الحالِكة، لنَنْتشِل أحبَّتنا من بُؤرَة الظلام، إلى زاوية النور".

الفصل الثاني

"ستلوح الذاكرة للماضي من بعيدٍ أيًّا كان أثره فيها، إلَّا ذلك الماضي البغيض، فإنَّه يَطِنُّ فيها طَنينَ الذُّباب".

كلُّ الذكريات تمرُّ، إلَّا تلك الذكريات السوداء؛ تبقى عالِقةً بالذهن، والقلب، والروح، لقد ثَقُل كاهلي من تراكم تلك الذكريات عليه، فما عُدْت أستطيع القيام..

مصائب تعقُبها مصائب، بدأت بأعظم مصيبة، لو لم يكن غيرها في شريط ذكرياتي لكَفَتْه سوادًا؛ إنَّه موت الأمِّ! تلك الفاجِعَة التي لا يقوى على تحَمُّلها الحجَر، ظللت قابِعَة في تلكمُ المصيبة سنوات غير آبِهة بشيْءٍ، مَذبوحة بسِكِّين بارِدَة، وازدادت الأمور سوءًا في ليلةٍ من ليالي الشتاء البارِدة، حينما هجم أمن الدولة فجأةً على منزِلنا واعتقل أخي، منذ خمس سنوات ونحن نعيش على أمل أنَّه سيعود اليوم.. غدًا... لكن هيهاتَ! فالأيَّام تمُرُّ، وحبل الأمل يفتُر، حتى إنَّه كاد يتمَزَّ ق، أظنُّه تمَزَّق حقًّا..

الأسوء من كلِّ هذا أن يحدث شيْء ما يمحو لك كلَّ هذه الذكريات، حلوها ومرها، نعم.. لقد ذهبت كلُّ ذكريا ت طفولتي مع أمّي وأخي حينما احترق منزِلنا القديم، احترق ولم يُبقِ على آثار أحد! أصبحت ذكرياتنا رمادًا تذْرُوه الرياح: دُمْيَتي، ثياب طفولتي، وصور أحبَّتي،.. كلُّ شيْء تبَخَّر مع دخَان الحريق، كلُّ شيْء..

الحمد لله أن لا دخل للحريق بعقولنا، وإلا مِتُّ كمدًا على ذاكرتي التي هي الخيط الوحيد الذي يربطني بالماضي..

آهٍ يا أمّي! لقدِ اشتقت إليكِ كثيرًا، لكنَّني الآنَ أغضُّ الطرف خجلًا منكِ؛ لأنَّني خُنتُ العهد، عهدَ الثقة يا أمّي، نعم.. خُنتُ، وما أستطيع البوْحَ لأحد.

بينما أنا غارِقة في لُجَجٍ منَ الأفكارِ، إذ به يُهاتِفني قائلًا: مُوافِق يا ذكرى، مُوافِق بمَحْض إرادتي، وبِكامل قوَاي العاطفيَّة أوَّلًا، ثمَّ العقليَّة أخيرًا.

- أرجوكَ، لا تتسَرَّع في الأمر يا فارس، فالأمر ليس بهَيِّن، وما تختاره بإرادتك الآن قد تندم عليه لاحِقًا، أرجوكَ تريَّثْ قبل أن تُصدِر قراراتك.

- ذكرى.. صدِّقيني! إنَّكِ -والله- لتلك الفتاة التي آمُل أن تكون زوجي، فأنا أرى فيكِ ما لا ترينه أنتِ في نفسك، فأنت فتاة طاهِرة نقِيَّة استسلمت لهواها يومًا، لكنَّها لن تعود لمثل ذلك أبدًا، وأثق من ذلك.. صدقيني!

- شكرًا لك على كلِّ شيْء يا فارس، أنا مُوافقة.

بكيت فرحًا، بكيت حزنًا، بكيت ندمًا، بكيت قهْرًا، المهمُّ أنَّني بكيت، بكيت كثيرًا، بكيت شكرًا وامتِنانًا لهذا الرجل الذي قلَّ نظيرُه في زمانِنا، أيُعقَل أن يكون هذا الرجل يعيش معنا على كوكب الأرض؟! لا أظنُّ ذلك؛ لكن على كلٍّ يوجَد فارس، وهذا يكفي..

قبل عامٍ من الآن كنت أعيش حياةً هانئةً، بعيدًا عن ذلكمُ الصخب وتلكمُ الضجَّة، بعيدًا حيث لا عالم مزيَّف، ولا أفكار مسمومة، ولا قلوب ضعيفة.

أذكر هذه الجملة التي قالتها لي صديقتي قبل أن أنتهي من دراستي بشهر:

"أمثالُك يا ذكرى قدِ انقرضوا! أنا لا أعرف أحدًا يعيش في قرننا هذا وعلى مَجرَّتنا تلك ليس لديه حسابٌ على الفيس بوك على الأقلِّ، ولا أعرف -أيضًا- فتاة لم تقع في الحُبِّ حتَّى الآن إلَّا أنتِ! بالرغم من أنك فتاة جميلة، تمتلكين بشرةً بيضاءً بنقاء الحليب، وعينين خضراوين، ووجهك يُشبه القمر في جانبه المضيء، شفاهُك بلون الكَرَز، أيُعقل ألَّا تكوني وقعتِ بالحُبِّ أو أنَّ أحدهم لفَتَ انتباهَك!

كم أنتِ فتاة بلهاء يا ذكرى، لو أنَّ لدي بضع هذا الجمال لكنتُ وظَّفتُه في محلِّه".

نظرتُ إليها نظرة كلُّها إشفاق عليها وعلى كلِّ فتاة تفكِّر مثل هذا التفكير الساذَج، ثمَّ ابتسمتُ قائلةً لها: تدرين ما الذي يجعلني سعيدةً راضيةً مطمئنَّةً دائمًا إلى ما أنا فيه؟ قالت: لا.

قلت: هو ابتعادي عن الفساد بوك خاصَّتكم، ثم إنَّني علَّقت قلبي بربِّي، فما عدْتُ أرى في الوجود سواه، أناجيه، أشكو إليه، أتضرَّع له، أبكي وأنا بين يديه ساجدةً...

صدِّقيني! أنقطع عن العالم -معذِرةً! أقصِد اللَّاعالم- لأجل الله؛ لذا حياتي هانئة، هادئة، لا يعَكِّر صفوها ذلكمُ العالم القذِر الملآن بأدران ملؤها الذنوب والمعاصي...

آهٍ يا زينب لو تذوَّقتِ لذَّة القُرب من الله، لعلمتِ أن لا سعادة في الكون كلِّه تُساوي هذه السعادة.

تمُرُّ الأيَّام سريعًا، وينقضي الشهر، ونخرج من قاعات الِامتحانات في آخر مادَّة لنا، آخر يوم، ولرُبَّما آخر لقاء، انتظرتُ صديقاتي حتى اكتملنا جميعًا، ثمَّ خرجنا نتسَكَّع في كلِّ شبْر في الجامعة، نسير في تلك الشوارع التي تُحيط بها، لست أدري إن كنَّا نوَدِّعها، أم نوَدِّع ذكرياتنا فيها، أو إن كنَّا نوَدِّع بعضنا بعضًا، فمن يدري ربَّما لا نلتقي بعد اليوم ثانية.

ذرفت عيناي دمعةً؛ إنَّها دمعة الفراق، مؤلم هو فراق الأحبَّة، كلُّ الذين نحبُّهم يرحلون واحدًا تلو الآخر، وكأنَّنا ما اجتمعنا إلَّا لنفترق، وما أحبَبْنا إلَّا لنشتاق، ويستحيل حاضرنا الجميل إلى ماضٍ، إلى ذكرى، إلى أيَّام درست..

التفَت إلي صديقاتي قائلاتٍ في صوتٍ واحدٍ: ما بكِ يا ذكرى؟ أتبكين؟ مسحتُ دمعتي ثمَّ ابتسمت قائلةً: أبكي وأنتنَّ هنا بجواري! إنَّه لخطأ في حقِّكم..

قالت منى: ربَّما ستشتاق لأحدهم، لذا هي متأثِّرة جدًّا.. وتعالَت ضحكاتهنَّ..

قلت لهنَّ: توقَّفن عن هذه التفاهات، لديكُنَّ فكر مُعاق يحتاج إلى كثير منَ التعديلات، ويمُرُّ اليوم سريعًا سريعًا، ما بين غمضة عين وانتباهتها، وبينما نحن نوَدِّع بعضنا قالت لي زينب: ذكرى.. رجاءً قومي بعمل حساب لكِ على الفيسبوك، وتواصلي معنا، فالأرقام قد تضيع منَّا لأسبابٍ عدَّة، أمَّا الفيسبوك فسيجمع بيننا أبدًا، انفتحي يا ذكرى على العالم، تحَدَّثي إلى الناس..

تعرَّفت على لصٍّ مُحترف؛ بل مُحترف جدًّا، سلبني لبِّي، سلبني روحي، سلبني ذاتي، استنزف كلَّ وقتي؛ إنَّه عالم لا رجعة منه ولا فرار.. آه! أخبركم بماذا..!!

بعدما بدأت الإجازة الصيفيَّة -كانت إجازة أبديَّة منَ التعليم- فكَّرت مليًّا فيما قلن لي صديقاتي من كلام عن هذا العالم، ثمَّ إنِّي أخيرًا انصَعْت لكلماتهن، وقمت بعمل حسابٍ لي على الفساد بوك هذا، ثمَّ إنِّي راسلتهنَّ، وبدا لي الأمر طريفًا، ورأيت أنَّه لا ضيْر منه، والحقيقة أنَّه لا ضيْر طالما أنَّنا نستخدمه في موضعه ولا نجعله يؤثِّر علينا سلبًا.. ثمَّ تراكم علي الوقت، وأصبح لدي طوال الوقت فراغ، لا دراسة، لا قراءة، لا شيْء..

إن كان النوم نسيب الموت، فإنَّ الفراغ نسيب الوساوس والهلاك بالمعاصي؛ نعم.. أوقات الفراغ ما هي إلَّا أوقات جدْب وقحْط، لا تجلب لنا شيئًا، بيْد أنَّه البؤس..

أقولها بملء في: أنا جعلت الفراغ يستغِلُّني لا أن أستغِلَّه، أجل.. لقد كان هذا نذير بداية انصِهاري في بوْتَقة الآثام.

تمُرُّ الأيَّام، ولا عمل لي علي هذا الموقع سوى أنّي أراسِل صديقاتي، أو هنَّ اللائي يراسلنني.. إلى أن أرسل لي ذلك "القيْصَر" - هكذا كان اسم حسابه- طلبًا بالصداقة، دخلت أتفَقَّد صفحته الشخصيَّة لأرى أيَّة معلومات عنه، وقعت عيناي أو لًا على صورته، وكان وسيمًا جدًّا، تأمَّلت صورته، لم أكن أتخيَّل يومًا أنّي سأدخل على "بروفايل" أحدهم لأمَرِّر بصري مرارًا على صورته، آهٍ ثمَّ آهٍ لذكرى.. ثمَّ قرأت في المعلومات الخاصَّة به أنَّه يعمل أخصائي تنمية بشريَّة، قلت في نفسي: ما الضير في انضمامه عندي في قائمة الأصدقاء، علَّ الفائدة تعُمُّني منه يومًا ما.. وبعد لأي شديد ما بين القبول والرفض، ما وجدتني إلَّا قبلته..

بدأ هو بالحديث، وكان حديثًا عامًّا، سألني: ما اسمك؟ ما تخَصُّصك الدراسيُّ؟ كنت أردُّ فقط على قدر سؤاله، إلى أن توَقَّف عنِ الكتابة..

ظللت قابِعةً طوال الليل أمام تلك الشاشة علَّه يُعاود الحديث مرَّة أخر ى، لكنَّه لم يفعل.. تمَنَّيت أن لو يسترسل في الحديث قدر

المستطاع، لست أدري ما الذي أصابني! أخشى أن تكون هذه هي لُوثَة الإعجاب التي حدَّثني عنها صديقاتي منذ شهر أو يزيد..

- صباح الخير يا عزيزتي، ألم تستفيقي بعد؟
- أريد أن أنام قليلًا بعد يا أبي.
- لكنَّ صديقتكِ منى هاتفتك كثيرًا، لا بدَّ أن تهاتفيها ضروريًّا، هكذا أخبرتني.

* * * * *

- السلام عليكِ يا منى، كيف حالك يا غاليتي؟
- من الواضح جدًّا أنني غاليتكِ! لذا ما عدتِ تسألين عنّي..

ضحكتُ، ثمَّ قلت لها: ما الأمر الضروري الذي جعلكِ تتَّصلين في هذا الوقت الباكِر؟

- عُرسي بعد شهر يا ذكرى، بعد شهر.
- أعلم أنَّه بقي شهر على عُرسك يا أجمل عروس.
- دعكِ من هذه المجاملات الآن.
- لكنَّها ليست بمُجامَلة يا مجنونة، المهم.. وماذا تريدين يا عزيزتي منى؟ أنتِ فقط تأمرين يا عروسنا الغالية.
- لا بدَّ أن تأتي معي اليوم لنختار فستان الزفاف، ونشتري بعض حاجيَّاتي الناقصة.
- سمعًا وطاعةً يا مولاتي.

- سأنتظركِ في المنزل بعد الظُّهر.
- سآتِ في الموعد، إلى اللقاء.

* * * * *

- ها ما رأيكِ يا ذكرى بهذا الفستان؟ لقد أعجبني كثيرًا.
- كم أنَّ ذوقكِ متدَنٍّ يا فتاة! عليك يا محمود أن تُعيد النظر مرَّةً أخرى في أمر زواجك من هذه الفتاة ها ها ها.

ضحك محمود، وردَّت منى بغضبٍ:

- ولِمَ عليه أن يُعيد النظر؟ وهل سيجد في الدنيا فتاة مثلي؟
- معكِ حقٌّ يا منى، لن يجد فتاة مجنونة مثلك.
- ذكررررررررى!
- أنتِ تعرفين جيّدًا يا منى أنَّ هذا مزح، وتعلمين جيّدًا كم أحبُّك، وكم أنتِ فتاة رائعة، والفستان صدقًا أكثر من رائع؛ لقد ازداد جمالًا عندما ارتديته.
- أتمنَّى أن لو ترتدينه عمَّا قريب يا ذكرى، ويستضيء هو من جمالكِ يا عزيزتي.
- ها قد حان الوقت لتناول الآيس كريم.
- كما أنتِ يا ذكرى، لم تتغيَّري بعد! كلَّما خرجنا معًا لا بدَّ أن تطلبي الآيس كريم.
- كم كانت المدَّة لأتغَيَّر؟ أأتغيَّر في شهر واحد أيَتها البلْهاء؟!

ظلَّ محمود يضحك ممَّا نفعله كثيرًا، ثمَّ قال: علي أن أوصلكنَّ إلى المنزل؛ لأنَّه لدي عمل الآن.

جميلة هي تلك الروح التي كنَّا نتمتَّع بها في هذا الوقت، كنَّا كتلك البلابل التي لا تكفُّ عنِ الترنيم نظرًا لأنَّها حرَّة، طليقة الفعال، طليقة المقال..

الرسائل الواردة.. الرسائل الواردة.. هاهي، ورسائل من القيصر..! لننظر ما بها..

"كيف حالكِ يا ذكرى؟ لم تفتحي البارِحة، علَّه خير!".
نظرت إن كان حسابه "ناشط الآن"؛ نعم.. إنَّه متَّصل الآن، أسرعت بالردِّ عليه..

- أنا بخير، كنت مشغولة بعض الوقت مع صديقتي.
- إنَّه لمنَ الجيِّد أنَّك بخير يا ذكرى.
- شكرًا لكَ يا... بالمناسبة، ما اسمك؟
- لقد نسيت أن أخبرك باسمي! أدعى: آدم.
- جميل هو اسمك، إذًا ما قصَّة القيصر هذه؟
- لأنَّني قيصر، ويليق ذلك بي.
- يبدو أنَّك مغرور!
- لا، لست كذلك.

أمضَيْنا الليل كلَّه نتحَدَّث، إلى أن أوشك الفجر أن يؤذِّن..

يمضي الوقت، ولا أجدني إلَّا ازدَدْت انجِذابًا لهذا القيصر! وهاهو قد أبدى إعجابه بي، والأمر يُسعدني جدًّا.. أو هكذا يخيَّل إليَّ! لا أخفيكم سرًّا.. لقد بدأت أقصِّر في صلواتي شيئًا فشيئًا، كنت أتأخَّر عن موعد الصلاة كثيرًا؛ لأنَّني مُنشغلة بالحديث معه، أرأيتم في الدنيا عاقل يتأخَّر عن موعد مَحبوبه؟

وليس هذا فحسب؛ بل قصَّرت في الصلاة بأكملها، فما عدْتُ أرى سَجَّادتي! ثمَّ إنِّي قصَّرت في حقِّ والدي كثيرًا، فما ناداني في مرَّة من المرَّات إلَّا وأنا مُنكبَّة على هذا الموقع مُنهمكة فيه، مُغيَّبة عمَّن هم حولي!

وكيف لا أقصِّر في حقِّ ربِّي، وحقِّ والدي، وجلُّ الوقت قد كرَّسته فقط للحديث مع القيصر؟!

كسرت كلَّ تفاعيل حياتي المنتظمة، وبدأ يتخلَّلها الزحافات والعلل شيئًا فشيئًا حتَّى صارت بلا أوزانٍ، ليس هذا فحسب، بل صارت بلا معنًى، بلا هدف، بلا.. بلا..

لا الأيَّام تتوَقَّف، ولا أنا أتراجع إلى الماضي، لا تنتابني رعشة الخشية التى كانت تصيبني من ذي قبل كلَّما همَمْت بمعصية ما، جفَّت مآقي الخشوع، تلك النعمة من أعظم ما منَّ الله به علينا، متى سُلِبت منَّا ضِعنا ولا مَناص..

وتمرُّ الليالي كشبح مُخيف يسلبني ذاتي وأنا فاغِرة فاهي غير آبِهة بشيء، فقط أشخص ببصري أمام هذه الشاشة، أبتسم لحديثنا

الذي يطول، أنزعج إن أخبرني بسوءٍ مسَّه، أفرح لنجاحاته، إنجازاته..

وفجأة قال لي: ذكرى..

قلت: نعم.

قال: لقدِ اكتشفت أنَّني وقعت في مصيدة حبِّكِ، الوقت كلُّه مُختزل فيكِ أنتِ، ماذا فعلتِ بي يا ذكرى؟! لم يسبق لي أن تعَلَّقت بفتاة كما تعَلَّقت بكِ، آهٍ منك يا ذكرى ومن حديثك العَذْب! يا لروعة جمالك! تبارك الله أحسن الخالقين..! لم أرك، لكنَّ حسِّي تجاه أنوثتك لن يخيب، أعلم ذلك، فأنا رجل أشتمُّ جمال المرأة من على بعد مئات، بل آلاف الأميال.

بعدما قرأت هذه الكلمات لم أستطع الردَّ عليه، لقدِ انحدرت في فوَّهة من الخيالات الغراميَّة، عشت لحظات من أساطير الروايات الرومانسيَّة، تلك التي عشَّشَت هناك في مخيِّلتي الخصبة لأبعد حدٍّ، هذا بعينه ما تمَنَّيت أن أسمعه منه، لم أسمح لأحد من قبله أن يقترب مِنِّي قِيد أُنمُلة.. تذكَّرت حينما كنت أضحك من صديقاتي اللَّائي وقعن في تلك الفوَّهة من قبلي، كان لديهنَّ شغَف اسمه الحبُّ، أصبح مع الوقت هوَس، جنون، كنت أرى أنَّ الحبَّ هو عمل مَن لا عمل له، يستنفِد وقته وطاقته، ينمحي شيئًا فشيئًا في ذاتٍ غير ذاته فيبدِّده.. بالأحرى الحبُّ في نظري وُجِد لأجل تسلية هؤلاء التافهين، كما أنِّي كنت لا أعترف به مطلقًا، كنت أراه كلمات مَعسولة منمَّقة يضحك كلُّ طرف بها على الآخر. أحيانًا كنت أراني

امرأة بلا قلب، فالقلب ينبض، نعم.. ينبض شوقًا ووجدًا لأحدهم، لا بدَّ من ذلك، لكنَّ قلبي ما نبض لأجل رجل، ربَّما كنت لا أرى في الرجال مَن يستحقُّ أن ينبض قلبي لأجله.

أذكر يومًا سألتني إحدى صديقاتي قائلةً: ذكرى.. ما مفهوم الحبِّ عندكِ؟

قلت لها: قلوب نقيَّة، لامِعة، زاهِية، تعرَّضت لعوامل التعرية مرَّة بعد أخرى حتَّى صدِئت، وما أمكن صقلها!

لم أكن أعلم أنَّ الأيَّام تدور سريعًا، والدائرة حتمًا ستتوَقَّف عند مُنحدر قلبي يومًا لأتعَرَّض لهذا الصدَأ الذي حدَّثت به صديقاتي منذ سنوات.

ثمَّ إنَّ مشاعري المتأجِّجة أفقدتني صوابي، أرأيتم نارًا مضْطَرمة تُبقي شيئًا من جسد تمَكَّنت منه؟ مشاعري تلك لم تُبقِ من عقلي قيد ظفر، فلقد طلب منِّي اللقاء، آن لكلِّ عاشق أن يلقى معشوقه، آن للكلمة أن تكون نظرة ولقاء، كنت أكثر منه توْقًا لهذا اللِّقاء، لكنَّ دلال الأنثى كان يمنعني من البوْح..

لقدِ اتفقنا في نهاية الأمر على أن نلتقي في إحدى الحدائق العامَّة، كان مِلحاحًا، وكنت أداة طيِّعَة، فانصَعْت له تحقيقًا لرغبتي المكبوتَة بداخلي، وتخَلُّصًا من إلحاحِه، حدَّد الموعد -حسب ما ناسبني-، وحدَّد المكان أيضًا، وقال: غدًا.. ما أبعد غدًا! الوقت سيمرُّ

أبطأ من سُلَحْفاة! على كلٍّ سأكون في الموعد تمامًا، أو أبكر، لكم تمَنَّيت لقائك يا ذكرى.

قلت: حسنًا، نلتقي غدًا في الموعد إن شاء الله.

- لكن.. مهلًا يا ذكرى، كيف أتعرَّف عليكِ؟
- لا تقلق، أنا سأتعَرَّف عليك.

ستقولون لي: لقد كان الشاب مهذَّبًا؛ لأنَّه لم يطلب صورتك! ولكن.. من قال إنَّه لم يطلبها؟! لقد فعل مِرارًا حتَّى ملَّ هو إلحاحه.. لا أقول لكم رفضت لأنَّه لدي بعد بقيَّة من عقل، ولكنَّه الخوف، خِفت أن أثق به -كان رفضي هذا يزيده شغفًا بي-، ولكن.. في قرارة نفسي تمَنَّيت أن أُرسل له صورتي وينبهر ببشرتي الناصِعة البياض، وعيني الخضراوين، وخدّي المورَّد.، ويُمطرني فيضًا من الغزل، وبحارًا من المدح، وأنهارًا من الإعجاب، إجلالًا لجمالي.. ألست بفتاة؟!

أخبرت أبي في الصباح بأنَّني قد واعدت صديقتي على أن نلتقي في الساعة الواحدة ظهرًا.

أجابني: حسنًا، اعتني جيِّدًا بنفسك، واحملي سلامي لصديقتك.

وضعت قُبلة حانِيَة على رأس أبي قائلةً له: سأفعل يا أحنَّ ما في الكون وأروعه.

ابتسم ابتسامة رضًا قائلًا لي: حسنًا أيَّتها المشاكِسة، علي أن أذهب إلى العمل الآن، إلى اللِّقاء.

- إلى اللِّقاء أبي.

لأوَّل مرَّة تعتريني نوْبَة الكذب هذه، وعلى من؟! على أبي! مذ رحلت أمّي تعاهدنا على أن يكون لي أبًا، وأمًّا، وأخًا، وصديقًا، طلب منّي ألَّا أُخفي عنه شيئًا ممَّا يدور بحياتي، وإن كان مثقال حبَّة من سرٍّ، كنت أفعل هذا دومًا إلى تلك اللَّحظة المشؤومة.

كنت أتعَجَّب دومًا من نهر أبي الفيَّاض، ذلك النهر لا يجفُّ عطاؤه ولا ينضُب، لا يتعَرَّض للجفاف مطلقًا.. الآن فقط علمت أنَّني لا أستحقُّ كلَّ ذلك، كم من فتاة تتمَنَّى أن يكون لديها مثل ذلك الأب، آهٍ يا أبتِ لو تعلم كم أحبُّك! وكم أتمنَّى أن لو أعتذر منك الآن! لكن.. هيهاتَ أن تجدي الندامَة.

خرجت من المنزل أتوَجَّس خِيفةً، فإذا أبي الذي آزَرَني بالأمس أخذُله اليوم، كلَّما مضيت خطوة إلى الأمام همَمْت أن أتراجع.. ما إنِ اقتربت منَ المكان حتَّى كاد قلبي أن ينخَلِع من بين أضلعي، كانت خطواتي بطيئة مُتثاقِلة، كمن قُيِّدت من قدميْها وما عاد يُمكنها الحَراك.

ما إن دخلت من باب الحديقة حتَّى نظرت بطرف عيني، إذ بعيني وقعت عليه، لم أنظر إليه وتظاهَرْت بأنَّني لست أعرفه لأنظر ماذا هو فاعل، وجدتُه مُحدِّقًا بكلِّ العابرين من الباب، امتَثلْت فجأةً أمامه، بدا كالذي أصابه الهلَع منَ امتثالي المفاجئ أمامه، ازدَرَد ريقه بسرعة، استعاد نفَسه بطريقة أسرع، مسح بإحدى يديه على ذقْنِه الأنيق وقال: لله درُّك من ذكرى! أحقًّا أنتِ ذكرى؟

أوْمَأت برأسي أن نعم، وكتمْت ضحكتي بالعضِّ على باطن شفتي، ثمَّ أخذت أسترِق النظر إلى ملامحه الجذَّابة بعد أن أشار إلي بالجلوس على الكرسي الذي جذبه للخلف بانحِناءة منه لأجلس عليه، كان يعي معنى الذوق، وهذا يجعل قلب المرأة يخِرُّ ساجدًا من أوَّل لقاء.

رمقني بنظرة سريعة، واعتدل في جلسته، ثمَّ أردف قائلًا:

- لم يطرأ بمُخيِّلتي قطُّ أن تكوني بهذا الجمال.
- إذًا كنت تظنُّني أجمل؟
- جميعهم في محراب جمالك لا شيْء، سيخرُّون ساجدين اعترافًا منهنَّ بأنَّك تفوَّقت على نساء الأرض قاطبةً.

تورَّدت وجْنَتاي خجلًا، وبدا وجهي كمن تعرَّض لحرارةٍ شديدة فأسفر عنِ احمراره من وقع تلك الكلمات عليه، ثمَّ انحنى إلى أسفل قليلًا، وأخرج من جانبه عُلبة حمراء قد أُحكِمت بشريطٍ أسود أنيق ينُمُّ عن ذوْقٍ عالٍ.. عالٍ جدًّا، وقدَّمها إلي بغْتةً قائلًا: أتمنَّى أن تنال إعجابك..

لم أذُبْ فيه عشقًا كما خيِّل إلي حينها؛ لكنَّ المرأة يا أعزَّائي تُذيبها الكلمات الناعمة، فمفتاح التحَكُّم عند المرأة يكمُن هناك حيث أذنها، تعشق لأجل كلمة، تغضب، تحزن، تكره لأجل كلمة.. هذا الكائن الأنثوي لا يرى جيِّدًا؛ لكنَّه يسمع جيِّدًا جدًّا.

- ذكرى.. أينك؟ إلى أي مكان جمح بكِ عقلُك؟
- لا شيْء.. معك.
- ألا تريدين معرفة ما تحتويه تلك العُلبة الصمَّاء؟
- ما بداخلها؟
- إنَّها مجموعة مؤلَّفات أحلام مستغانمي.

تذكَّرت أنَّني كنت قد أخبرته بأنَّها الكاتبة المفضَّلة عندي، تأسِرني كلماتها، رغم أنَّني لم أشترلها كتابًا ورقيًّا على الإطلاق.

صمت هُنَيْهَة، ثمَّ قال: الأسود يليق بكِ يا ذكرى.

لم يكن يعلم أن خزانتي لا تحوي عدا هذا اللَّون الذي ارتديته حدادًا على أمِّي، ثمَّ أخي، ثمَّ إنَّني سأرتديه حدادًا على نفسي، أعلم ذلك جيِّدًا، فأنا الآن أسلك طريقًا غيرتلك التي اعتَدْت عليها، طريقًا ستُودي بي إلى الهاوية، ثمَّ لا عودة، ولا استقامة..

همَمْت أن أخبره بأنَّه وسيم جدًّا، فهو حِنْطي البشرة، ناعم الشعر شديد سواده، ذو عينين بنِيَّتين تُصدران بريقًا يعكس جمالهما، عندما يضحك يُسفِر فمه عن طاقم لؤلؤي منتظم خُلِق بدقَّة، سبحان من أبدعه! لكن منعني كبرياء الأنثى، لأنَّنا معشر النساء نحبُّ أن يُعترَف بجمالنا، بيْد أنَّه من الصعب أن نفعل نحن ذلك.

كنت أسترِق النظر من قسمات وجهه وعينيه الكحِيلتين، لكن في كلِّ مرَّة أنظر إليه يُمسك بي متلبِّسة، وكنت أموت في جلدي خجلًا.

بعد حديث طال بيننا لست أدرى بدايته ولا نهايته، نظرت إليه قائلةً:

- علي أن أنصرف الآن، لقد سرقَنا الحديث وتأخَّر الوقت.

- أمسك على يدي بكلتا يديه وأطبق عليهما قائلًا:

ذكرى.. لم أرتوِ منك بعد، ولا فاض نهري من عذب حديثك ومُلَحه، رجاءً ابقي قليلًا!

سحبت يدي منه وذهبت صوْب بوَّابة الخروج مُسرعة، ركض خلفي مُعتذرًا عمَّا بدَر منه، متوسِّلًا إلي بأن أصفح عن ذلك.

قلت: لا ضير! لكن.. كن حذرًا فيما بعد، هذا إن كان هناك فيما بعد.

- حسنًا، سأتحدَّث إليك عندما تصلين، أيُمكنني أن أُرافقكِ في الطريق؟

- لا، لا يُمكن!

- اعتني بنفسك جيِّدًا، إلى اللِّقاء.

- إلى اللِّقاء.

في الحقيقة لم أعرف ما سبب ضجري المفاجئ عندما أطبق على يدي بيديه! أذكر أنَّني كنت مستمتِعةً جدًّا بذلك الإحساس الذي أستشعِره لأوَّل مرَّة؛ لكنَّه -أيضًا- قانون الأنثى، تأبى إلَّا أن تكون صعبةً، بعيدةَ المنال.

أتدرون ما هي أسوأ آفَةٍ؟ تلك التي تُصيب منك ما تشاء، كما تشاء، متى تشاء، حيث تشاء.. وما هذه الآفة إلا الحب! تأتيك هكذا بلا مقدِّمات ولا سابق موْعِد، تسلب منك ذاتك إلى ذات غيرك، ثمَّ تُخبرك بأنَّكما روح واحدة في جسدين مختلفين..

هكذا ضِعْت في آدم، ولست أدرى إن كان ضاع في أيضًا، غير أنَّ جُلَّ كلامه خير دليل على أنَّه عاشق من الدرجة الأولى.. لكن دعوني أخبركم بأنَّ نظرته لي لم تكن نظرة حبٍّ بقدر ما هي نظرة انبهار بذات العينين الخضراوين، والبشرة البيضاء النقِيَّة، والقوام المُشوق..

عندما تعشق للمرَّة الأولى، ستنصهر كلِّيًّا في ذاك المحبوب، ستفنى فيه، ستُخلِص حتَّى تُستَخلَص، ستَفِي حتَّى تُستَوفَى، فما أنت إلَّا محْض تجربة ضمن تجارب خبير في مجال الحبِّ، أو إن شئت قل: مجال التلاعُب بقلوب العَذارَى! تدري ما عيب من يحبُّ لأوَّل مرَّة وبخاصَّة إن كان أنثى؟ أنَّه يحبُّ بكلِّ ما أوتي من وفاءٍ، ولا ينتظر مُقابلًا لوفائه ذاك..

وأنا في طريق العودة إلى المنزل، تمنَّيت أن لو أمتلك كلَّ ورود العالم لأوزِّعها على كلِّ العالم من فرْط سعادتي، تتردَّد كلمات آدم في أذني كما لو أنَّها مقطوعة موسيقيَّة لا تبرح عقلي من شدَّة تأثُّري بها، أمَّا عن صورته وابتسامته فقد حجبا العالم عنِّي، وأقاما محلَّه..

لم أكن أعلم أنَّ الحبَّ يسلُب العقل والقلب، ويمنع النوم ويسبِّب الأرَق.. قرأت شعر المجنون -مجنون ليلى-، لكنِّي ما كنت أقتنع حينها أنَّ الرجل جُنَّ من فرْط حبِّه، وتساءَلْت إن كان الحبُّ هو مصدر إلهامه لهذا الشعر! قلت: مُحال أن يفعل الحبُّ كلَّ هذا!

وها أنا الآن قد فقدت صوابي، والسبب هو الحبُّ! وها أنا قد رقَّ أسلوبي وترفَّعت كلماتي، والسبب هو الحبُّ!

إذن.. أكان الحبُّ أمرًا سيِّئًا أم جيِّدًا؟ لست أدري! لكن.. كلُّ ما أعرفه أنَّني في هذه اللَّحظة الراهِنة سعيدة، وهذا يكفي.

في الحبِّ لا ماض ولا مستقبل، عش دقائقك الراهِنة، استمتِع بها، اسمع دقَّات قلبك واتَّجِه حيث أشارت، فبَوْصَلة الحبِّ تدلُّك على طريق الذهاب، بيْد أنها لا تدلُّك على طريق العوْدة، ثمَّ إنَّها تتناسى تمامًا أن تُخبرك بما عليك فعله إن أنت وقعت في الحبِّ.

عدْتُ إلى المنزل ووَمِيض البهجة يعتلي وجهي، ودقَّات قلبي على وشك أن تفضحني، عيوني ضاحكة، وثغري مُنفرِج أيَّما انفراج، فتحت الباب بحركة بَهلَوانيَّة تُشبه راقصات البالِيهْ، واحتضَنْت أبي،

ثمَّ أسرعت إلى غرفتي، تصلَّب أبي مكانه لبعض الوقت فاغِرًا فاه، مُتعجِّبًا من حالتي تلك . نعم.. مرِحَة بطبعي . لكن ليس إلى هذا الحدِّ الذي يجعل الناظر إلي يظنُّ بي بعض العَتهِ!

طرق أبي باب الغرفة، دخل على إثر كلمتي:

- تفضَّل يا أبي.

ظلَّ صامتًا بعض الوقت، ثمَّ أفصح قائلًا: ما خطبُك يا ذكرى؟ ما سرُّ هذه الِابتسامة؟

- لا شيْء أبي، فقط استمتعت وصديقتي بالوقت الذي أمضيناه معًا.

- لو كان الأمر كذلك، فلتخرجي معها كلَّ يوم.

ثمَّ ربَّتَ أبي براحة يديه على ظهر ي، وخرج من الغرفة مُبتهجًا لبهجتي تلك التي لا يعلم سرَّها سوى الله.

بعدما خرج أبي من باب الغرفة، ولَّيْت مُقبِلةً صوْب جهازي، وفتحت الموقع على أمل أن أجد رسالة منه قدِ امتلأت بسيولٍ من المدح، وكلماتٍ من الإعجاب والحبِّ؛ لكن.. خاب ظنِّي! فما وجدت منه رسالة واحدة تروي ظمئي، لم أُراسِله أنا أيضًا، فقانون الأنثى يُحتِّم عليها الِانتِظار، ولا يُحتِّم عليها الِابتِداء، فقد تموت الواحدة منَّا شوْقًا إلى معشوقها، لكنَّها تأبى إلَّا الِانتِظار!

لدينا -نحن معشر النساء- عدَّة قوانين توشِك قلوبُنا أن تنفجر غيظًا منها، وخروجًا عليها.

انقضى اليوم ولم تصلني منه رسالة واحدة، حتَّى ظنَنْت بنفسي الظنون، أَلِهذا الحدِّ كنت سيِّئة؟ لذا تهرَّب منِّي! أبمجَرَّد لقاء عابِر يكون قد أشبع رغبته منِّي؟! آهٍ يا ذكرى! ماذا فعلتِ بحالك أيَّتها البلْهاء!

مرَّ الوقت بطيئًا جدًّا، كسُلَحْفاة قوَّضها الدهر فصارت أبطأ ممَّا كانت عليه، ضجِرت من حالة الِانتظار تلك، وقرَّرت أن أُراسِله أنا، وما إن فتحت حسابي حتَّى وجدت رسالةً منه:

"كيف حالك يا ذكرى؟ أعتذر لأنَّني تغيَّبت عنك، لكن لا تؤاخذيني بما فعلت، فقد مرِضَتْ أمّي فجأةً وساءت حالتها الصحِّيَّة، وذهبنا بها إلى المشفى، ولم يكن بإمكاني أن أتحدَّث إليك".

- لا عليك يا آدم، المهم.. كيف حال والدتك الآن؟ وأنت كيف حالك؟ أتمنَّى أن يكون كلُّ شيْء على ما يُرام.

- الحمد لله، كلُّ شيْء على ما يُرام، والأمور قدِ استقرَّت سريعًا.. لكن دعْكِ من كلِّ هذا، أنَّى لكِ بهذا الجمال! أوَّهْ يا ذكرى..! لم يخطُر ببالي قطُّ أن تكوني جميلة إلى هذا الحدِّ، لم تخبريني -أيضًا- أنَّك تمتلكين عينَي قِطٍّ.

- عينَي قِطٍّ!

- نعم يا ذات العيون الخضراء، والوجْه المُخْمَلي الناصِع البياض، و...

- السلام عليكِ، كيف حالك أيَّتها النذْلَة؟

- نذْلَة! لمَ هذه الدَّخْلة التي تُلصقني بالجدار مباشرة! على كلٍّ لقدِ اشتقت إليك كثيرًا.

- لست أدري مَن منَّا العروس! أين تختفين؟ ويْكأنَّه أصبح لِزامًا علي أن أُبادِر أنا بالسؤال!

- أعتذر منك يا مُنيَة القلب، لكن...

- لكن ماذا؟

- لا شيْء!

أظنُّ أنَّ منى اعتدلت في جلستها، فهذا دأبها عندما يستثير شغفها خطبٌ ما، وأخذت تُناشدني أن أتحدَّث، واللَّهفة بيِّنة من خلال حديثها، قائلةً:

- لا شيْء! إذًا هناك خطب عظيم، هيَّا أفصِحي عمَّا يختلِج صدرك، فكلّي آذان مُصغِيَة.

- لا لا، أظنُّ أنَّني... أقصِد...

- الآن بحَّ صوتك، وعُقد لسانك!

- لقد وقعت.

- من أين؟ وكيف ذلك؟

- لقد وقعت في الفخِّ الذي نُصِب منذْ خلِق آدم وحوَّاء!

- تستظرفين وتتفلسفين الآن! أهو وقتك يا ذكرى! أغلقي الهاتف فورًا...

- لا أتفلسف، صِدقًا ما حدَّثتك به يا منى، يبدو هكذا أنَّني وقعت في مَصيَدة الحبِّ، والصيَّاد قد أحكم شِباكه على قلبي!

- الحقُّ معك، فلتنسيني ولتنسي العالم أجمع، هذا إن لم نكن سقطنا من ذاكرتك بالفعل، ها كيف تعارفتما؟ ما اسمه؟ أوَسِيم هو؟ أظنُّ ذلك؛ فذوقك عالٍ، ولن يُخطئ في اختيار الرجل المناسِب، ماذا يعمل؟

- مهلًا مهلًا! سأوافيك بأدقِّ التفاصيل يا مفَتِّش كُونان.

الفصل الثالث

"حينما يبلغ الألم مَداه، يُصبح اللَّاشيْء أهمَّ من كلِّ شيْء"!

سأتزَوَّج منه..

ماذا أفعل يا أمّي، وقدِ انهارت جبال أحلامي الشامخات، كلَّما هدمت حاجزًا أقام عوضًا عنه جُدُرًا جمَّة، ما إن أقترب منه خطوة واحدة حتَّى يبتعد هو مئات الخطوات، يتضائل حجمي كلَّما استشعرت نُفوره منِّي، بينما هو يتعاظم في ناظري إلى أن بلغت عظمته عَنان السماء، أهكذا نصير أذلَّاء عندما نقع أسرى الحبِّ! تلك هي المعادلة الطبيعيَّة، فمتى كان الأسرى أسياد أسيرهم؟!

أقبيحة أنا يا أمّي كيما أتبدَّى في نظر فارس سرابًا لا يُلقي له بالًا؟! أعلم جيِّدًا أنَّني جميلة جدًّا إلى حدٍّ فاتن، لكنَّ تجاهلَه إيَّاي قبَّح أنوثتي، فالمرأة تُزهر يا أمّي عندما تعشق وتعشق، تتفتَّح حينما يرويها أحدهم بعبق الغزل، وينثرها بأريج الحبِّ الذي حتمًا سيجعل عينيها تلمعان كبريق الفضَّة الذي تعكسه أشعة الشمس.

أخشى أنَّ ما يدور في ذهني يكون واقعًا ملموسًا، لا أتحمَّل مجرَّد التفكير فقط في أن يكون فارس قد وقع في شباك امرأة أخرى غيري، إنَّ مجرَّد التفكير في كون الرجل الذي أحبَبْته قد أحبَّ امرأة أخرى لَأمر قاتل، تتسلَّل إلى ذهني أفكار أخرى، أراه من الآن متشبِّثًا بأخرى غير ى، وقدِ اغتبطا فرحًا وهما يسيران في مشية ملكيَّة ناحية المأذون، وقد همَّ أن يعقد قرانهما على مرأًى ومسمع منِّي، وأنا أشتاط غضبًا، ويكأنَّ حريقًا عظيمًا تلمَّس شغاف قلبي وما أمكن إخماده!

لا يُمكن بأي حال منَ الأحوال أن أسمح لامرأة أخرى غيري أن تقترب من فارس قيد ظفر، ولو فعلَت.. لأجعلنَّ منها بقايا امرأة، أو إن شئتم شبح امرأة، فالحبُّ الذي يعرف الِاستسلام لا يُعدُّ من وجهة نظري حبًّا؛ بل هو حمق، مَأفون من يتنازل عن قلبه لآخر!

على كلٍّ.. علي أن أُعيد صياغة المعادلة السابقة لأخرج بنتيجة أخرى وفق مفاهيمي وقوانيني أنا، لا بدَّ أن أستذلَّ قلب سيدي، وأستعبد قلبه كما فعل هو بي، لا بدَّ من ذلك حتمًا..

- هوِّني عليكِ يا ابنتي، أراكِ تتعجَّلين الأمور، دعكِ من هذه الخيالات وتلك الثرثرات التي تملئين بها ذهنك، فما الذي يدريك، فربَّما تكونين أنت التي امتلكت شغاف قلبه، لكنك تعلمين تمامًا أنَّ فارس كتوم جدًّا، وطبيعي ألَّا يُفصح بأمر كهذا، فالله أسأل أن يجعله من نصيبك، فأنت ابنة خالته، وأولى الناس به، هكذا سيفكِّر، صدِّقيني! وخاصَّةً أنَّه لا يعيبك ولا ينقصك شيْء.. تجمَّلي بشيْء منَ الصبر يا عزيزتي، فالله الله في الصبر!

- أظنُّ عليك الآن أن تصيري أكثر جرأة من ذي قبل، فلتصارحيه بمكنون قلبك، علَّه يرقُّ، ولعلَّ صنمه يستخزي منك ويتحرَّك، هذا النوع من الرجال يا ضحى لن يتحرَّك من تلقاء نفسه، فأنا رجل مثله، وأعلم ذلك جيِّدًا.

- أصدقًا ما تقول يا أحمد؟ أقصد.. أتعي ما تقول جيِّدًا؟ أدرست الأمر، أم أنَّه خرج من فيك اعتِباطًا؟

- أعي ما أقول جيّدًا يا أخيَّتي، على كلٍّ جرّبي، ولن تخسري، فالمحاولة التي لا تنفعك لن تضرَّك.

- معك حقٌّ يا أحمد، تمنَّ لي حظًّا موفَّقًا، فما عدْتُ أتحمَّل الفشل مرَّة أخرى.

- حظًّا موفَّقًا يا عزيزتي ضحى.

- شكرًا لك يا أحمد.

- نحن في الخدمة دومًا.

قال أحمد جملته الأخيرة وهو يبتسم لضحى، وبادلته هي -أيضًا- نفس الاِبتسامة.

الفصل الرابع

"إيَّاكم وطي المسافات، فإنَّها استهلاك لصفحات قلوبكمُ المفتوحة، وسيكون عاقبة أمرها الندم"

عادةً ما ندمِج الخير بالشرّ، ونوهم أنفسنا أنَّ ما نفعله هو ابتغاء مرضاة الله، وإذا أمعَنَّا النظر وجدنا أنَّنا ما نفعله إلَّا ابتغاء مرضاة قلوبنا المريضة الواهِنة، سنفتعل الأفاعيل، ونتقوَّل أقاويل لا قِبَل لنا بردّها، فقط كيما نقترف إثمًا دون الشعور بوَخْزة الضمير، لسنا فاقدي البصر، ولكنَّنا نتعامى، لأنَّ مَن يغرق في الوَحْل بمحض إرادته حتمًا فقد شيئًا أسمى منَ البصر..

ومن هذا المنطلق، وجدت ذكرى أنَّه من واجبها أن تسأل عن أحوال أمِّ آدم، وكيف حال صحَّتها، فأرسلت إلى آدم تسأله عن حال أمِّه:

- كيف حال والدتك الآن يا آدم؟ عساها بخير! أسأل الله أن تَبُلَّ من مرضها عمَّا قريب.

- لقدِ ازدادت صحَّتها سوءًا، وهي الآن لا تبرح فراشها إلَّا قليلًا.

بالمناسبة لقد حدَّثتها عنكِ كثيرًا، وهي الآن تتوق شوقًا لأن ترى تلك التي سلبت لُبَّ ابنها الوحيد.

- أصدقًا ما تقول ؟! أتمنَّى أن لو أفعلها، لكن للأسف الشديد لا يُمكن!

- وما الذي يجعله لا يُمكن؟

- العادات والتقاليد.

- أتمنعك من عِيادة المريض؟!

- لن أنتصر مطلقًا إن أنا أردْتُ مناقشتك في أمر ما! ألست أخصَّائي تنمية بشريَّة؟ فأنتم أولياء الحجَّة والبرهان..

ضحك آدم وهو يقول:

- استسلمي، وأذعِني لأمري، ولتأتِ لزيارة والدتي، وينتهي هذا النقاش الآن.

- يبدو هكذا أنَّني سأعلن استسلامي وقلَّة حيلتي أمام جدالكمُ العظيم.

- هكذا تكونين تلميذة مهذَّبة، سأنتظر كِ غدًا، إليكِ العنوان..

- أنوع من السيطرة -تلك التي تدَّعون امتلاكها- ما فعلتَ الآن؟!

- لا.. ليس كذلك، بل ثقة عمياء في أنَّكِ لن تخذليني.

- هكذا أفحمتني أشدَّ ما يفحم المرء، على كلٍّ أعدَّ لي غداءً جيِّدًا، أتمنَّى أن تكون طاهيًا ماهرًا كما أنَّك مُجادِل لبِق.

- ستُقرّين بذلك غدًا.

- حسنًا، ألقاك غدًا.. إلى اللِّقاء.

- إلى اللقاء.

يشتَقُّ طريقًا إلى شُرُفاتِ قلوبنا سلام يملؤنا سكينة، وقدِ استفقنا لتوّنا من نوم عميق، فتستقبلنا تلك الصباحات بنسائمها العَبِقة، بيْد أنَّه صباح غريب استقبلني بوَخْزة كاد على إثرها أن

ينخلع قلبي الرقيق، وما كانت تلك الوَخْزة إلَّا أولى ضرائبنا التي ندفعها ثمنًا لمعاصينا باهظة الثمن..

تلافيت تلك الوَخْزة، وحاولت أن أشتقَّ صباحًا آخر يُشبه صباحاتي الجميلة، فكان لا بدَّ من وجه أبي الحسن، كيما أبتسم من جديد..

- صباح الخير يا أبتِ.

- صباح الرضا من الله تعالى يا عزيزتي ذكرى، أأعدَتِّ الإفطار؟

- منذ عشر دقائق وهو في انتظارنا.

- جيِّد، بالمناسبة -قبل أن تداعبني الذاكرة بالنسيان- سنذهب اليوم إلى "البحيرة" لزيارة عمِّك إبراهيم وأبنائه.

- لا.. لا يُمكن اليوم يا أبي، فوالدة صديقتي مريضة جدًّا، لا بدَّ وأن أزورها اليوم!

- لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله! أهي والدة منى؟

- نعم.

- أتمنَّى أن لا تسوء حالتها الصِّحِّيَّة، فعُرْس ابنتها بعد أسبوع!

- نسأل الله لها العافية..

- لتذهبي وتطمئنّي على صحَّتها، ولتخبريها بأنَّني سأزورها متى سنَحت لي الفرصة.

كما لو أنَّ موْجة من الهواء المحمَّل بالحرارة الشديدة اجتاحت جميع جسدي، فبدأت أتصَبَّب عرقًا، خوفًا من أن يفعل أبي ذلك، ويكتشف افتراءاتي تلك!

ظننت أنَّ قلبي هذه المرَّة أصبح أكثر جرأة وأكبر ثقلًا من ذي قبل، فتلك هي المرَّة الثانية التي أكذب فيها، والمرء لا يحمل همًّا إلَّا لتلك الخطوة الأولى التي تأتي على إثرها باقي الخطوات تباعًا.. لكنَّه أخلف ظنِّي!

فما إن وطِأَت قدمي الشارع، حتَّى شعرت بارتِجافة، فرُحتُ أسبح داخل عباءتي، والتي تبَدَّت كعُباب البحر الحالِك، فخِلْتُني للحظات أغرق، وما كانت هذه اللَّحظات على وجه المجاز، فأنا في حقيقة الأمر أغرق..

لم أستغرق وقتي في التفكير، فهو في هذه الحال قد تمَّ محوُه بنجاح منَ الذاكرة، لم تكن خطواتي مُتثاقِلة، بل كانت سريعة جدًّا، كلصوص منتصف الليل أو أشدَّ، ألقيت بحملي -والذي أصبح أكثر تُخْمة بتلك الهموم- داخل الحافِلة، وانطلقت إلى العنوان، حيث يقْطُن هو في مصر الجديدة، لم تكن النصف ساعة التي تفصلني عنه سوى ثوانٍ مَعدودة، فالأماكن التي نتحاشاها تقترب من تلقاء نفسها، بعكس تلك التي نحبُّها..

كانت لدي عادة غريبة، وهي أنَّني كلَّما ركبت وسيلة مواصلات أتطلَّع إلى وجوه الركَّاب، وأتساءل: يا ترى ما الهمُّ الذي يحملونه؟ ماذا يكمُن خلف عُبوسهم.. خلف ابتساماتهمُ الباهِتة كلون الحياة

تمامًا؟ إلَّا في تلك المرَّة كنت أتوارى من نظرات الناس، أتحاشى أن يَنبِس فمي ببِنْت شفة، كما لو أنَّ جريمتي قد نصبت أعلى جبهتي، فما إن أرفع رأسي حتَّى يفتضح أمري..

نزلت من الحافِلة، وبحثت عن موقعه على جوَّالي، بدا لي على مقدار خطوات من موقعي، فقلت: أهاتِفه لينتَشِلني من نظرات الناس التي أتوَهَّمها! فما هي إلَّا دقائق معدودة حتَّى وجدته مُنتصبًا أمامي كالتمثال الأبْلهِ من فرْط ابتسامته.

- كيف حالك يا ذكرى؟ حقًّا أنا لا أُصدِّق نفسي أنَّكِ الآن أمامي وأملأ بصري من محراب جمالك العَذْب..

ابتسمتُ ابتسامة خجل، ثمَّ قلت:

- أليس لديكم منزل؟

لم أقصدِ الإسراع إلى منزله، بل قصدت الاِختباء من نظرات الناس التي كادت تأكلني وهو يقف أمامي هكذا..

- بالطبع.. هيَّا لنصعد، لا تؤاخذيني! فقد أفقدني لقاؤك صوابي..

كان صعود السلَّم بالنسبة لي كمن يتسلَّق جبلًا صلدًا، كنت أعاني مشقَّة الصعود، فضربات قلبي في اتِّجاه عكسي مع حركات قدمي، فهي سريعة جدًّا، بخلاف أرجلي التي أحكمت حركتها الآن..

- ما بكِ يا ذكرى؟ أسلَّمنا مُتعب إلى هذا الحدِّ؟! بقي دور واحد ونصل، وللأسف الشديد! الأسانسير معطَّل منذ يومين.

- لا.. لا..! فقط كنت مُتعبة قبل أن آتي من الأساس.

- ها نحن قد وصلنا.

وأخرج مفتاح الشقَّة، فما إن غرسه في أحشاء القُفْل، حتَّى سَرَت قُشَعْرِيرَة في جميع أجزاء جسدي، كما لو أنَّ تيَّارًا كَهْرَبائيًّا أصابني توًّا، فرُحتُ أهتزُّ اهتزازة عصفور بلَّلَه القطر!

أزاح الباب، وأشار إلي بالدخول، فتراجَعْت للخلف، وقلت بصوت مُرتجِف:

- أين أمُّك؟

- أنتِ تعلمين أنَّها مريضة، وتقضي ليلها ونهارها في الفراش!

- إذًا هي في غرفتها؟ ادخل أوَّلًا واجعلها تناديني..

- أإلى هذا الحدِّ لا تملكين ذرَّة إيمان تخبرك بأنَّني صادق معك أيّما صدق!

- افعل رجاءً ليطمئنَّ قلبي.

دخل بالفعل، وجائني صوت أمِّه من تلك الغرفة النائية في أقصى الشقَّة:

- ادخلي يا بنَيَّتي، ما بكِ يا عزيزتي ذكرى؟ أتخجلين منِّي؟!

أصابني شيْء منَ الاِطمئنان، وإن كان اطمئنانًا غير كامل.. ربَّما هو أوهام منَ الاِطمئنان!

ولَّيْت وجهي حيثما أتاني الصوت، وكان آدم من خلفي، لم أكن متيَقِّظة إلى ذلك الباب الذي أُوصِد من ورائي وأنا غير منتبهة إلى ذلك الأمر!

ما إن وطِئت بأقدامي داخل الغرفة حتَّى وجدتها فارغة من جنس البشر، أصابني الهلع في تلك اللَّحظة، لكن.. جائني صوت آدم من خلفي قائلًا:

- ذهبت إلى المرحاض لتوِّها.

هدأ قلبي قليلًا، ثمَّ أشار آدم إلي بالجلوس، وذهب ليُعدَّ لي فِنجالًا منَ القهوة، في تلك اللحظات كنت أتسَعَّر غيظًا من حماقاتي التي قادتني إلى هنا! وأدعو الله من صميم قلبي أن يغفر لي زلَّتي، وأن يُتمَّ ستره علي ريثما أعود إلى المنزل، فبدون ستره نحن لا شيْء، ستتبخَّر تلك القناعات التي قدِ ارتداها جميع البشر.

في تلك اللحظات لم أكن متَّزنة ذهنيًّا ولا نفسيًّا، فكاد عقلي أن يجنَّ من فرط التفكير، وقلبي على وشك أن ينخلع من مكانه، فما كان منِّي إلَّا أن أخذت أُلقي باللوم على نفسي..

تبًّا لنا! نبحث عن ذواتنا في أعين الآخرين، نبحث عن غريب ليحتوينا، أو بالأحرى.. ليحتلَّنا! فوجود هذا الغريب لهو خير دليل على حماقتنا، ظننَّا أنَّه ما أتى إلَّا ليستعمِرَ قلوبنا التي خرِبت، ويُعيد إلينا سعادتنا الضائعة، وما هو إلَّا مُحتلٌّ غادر، مزَّق ما تبقَّى فينا

من روح، أزال من بواطننا السكينة، سفك أكواب السعادة التي بين أيدينا، ونحن ماذا فعلنا؟ عضَضْنا على أيادينا ندمًا، وأهدرنا أنهارًا منَ الدموع ألمًا على فعلتنا تلك.. هيهات تُجدي الندامة!

رُحتُ أنادي على آدم بصوتٍ مُرتجِف تكسوه مَسحة حزن بيِّنة:

- آدم..! أين أمُّك؟! فلقد تأخَّرت، وعلي الذهاب.

أتتني قهقهات آدم التي تبَدَّت لي كزئير أسد جائر في أجواف الغابات، وتيَقَّنت أنَّني مأكولة لا محالة! فأردفت أقول:

- ما الخَطْب؟

- لا شيْء أيَّتها الجميلة!

قال هذه الجملة وهو يداعب ذقني النحيل، فأشَحْت بوجهي إلى الناحية الأخرى، فازداد هو تمسُّكًا بذقني ليُعيدَ وجهي إلى وضعه السابق، فقلت مُتأفِّفَة ممَّا يفعل:

- أين أمُّك؟!

- دعكِ الآن من أمِّي يا ذكرى، فأمِّي وأخواتي الثلاث لن يكنَّ هنا قبل ثلاثة أيَّام!

- أيُّها الوَغْد! مُنحَطّ.. جميعكم هكذا..!

- مُصِرَّة أنتِ على ارتِداء ثوب العفاف!

- عفيفة أنا شئت أم أبيْت، وُلِدت طاهرة، وسأموت كذلك، فإيَّاك أن تظنَّ أنَّك مُرتشِف رشفة واحدة من طهر ي، ثمَّ تحيلني إلى مُستنقع العاهِرات اللَّاتي عَهَرنَ بفعلاتكم أيُّها الأوغاد!

- تبقى المرأة عاهِرة طالما أنَّها أرادت ذلك، فالأمر دومًا ما يكون بإرادتها، وتُحافظ على عفافها مَن أرادت أن تُحافظ، وخير مثال على ذلك أخواتي..

- ومن أدراك أنَّ أخواتك لن يقَعْن في هذا المستنقع، استردادًا فقط لما فعلت؟!

- اصمتي أيَتها المنحَطَّة، وإلَّا لطَمْتك لطمةً تشُجُّ وجهك الجميل هذا! وسأكو ن نادمًا جدًّا إن فعلت هذا بوجهك الرائع.

- خير لي أن تفعل هذا مئات المرَّات -فأنا أستحِقُّ ذلك وأكثر- من أن يأخذك تفكيرك المحدود إلى تلك الأماني التي تُمنِّي بها نفسك!

يُقهقِه من جديد كثمِل فقد عقله وراح يغطُّ في طور جنونه، وكنت أنا المأفونة التي تلَقَّت صفعات ذلك المجنون!

أرتجف، لكنِّي أتحامل خشية أن يقرأ ضعفي فينال منِّي ما يرمي إليه بأيسر الطريق، اغرَوْرَقت عيناي بالدموع، لكنِّي أبَيْت إلَّا أن تبقى دموعي أسِيرَة داخل أسوار جفوني.

اقترب منِّي أكثر، وبدأ يستنشِقني كمن يستنشق عبَق الحياة بكلِّ ما أوتي من أمل، وبدأت أنهار شيئًا فشيئًا! أزحف كصُرْصُور

مُستضعَف أطبق عليه أحدهم بحذائه، فهو يحاول الإفلات منه، بيْد أنَّ الأخير قد أحكم قبضته وأقسم على ألَّا يتركه يرحل بسلام!

همَمْت أن أُهرْوِل ناحية الباب، لكنَّه أمسك على يدي بيدين من فُولاذ، فكادت عظامي أن تنفكَّ على إثر تلك القبضة، فلقد تمَكَّنت منه الشهوة، فكان كالثور الهائج، وكنت من فرط هَلعي أضعفَ من نمْلَة على وشك أن يطأها بأقدامه فينتهي أمرها!

في تلك اللحظات كان لسان حالي يقول:

لقدِ انتهى بي الأمر إلى الدرك الأسفل منَ الجحيم في الدنيا والآخرة، فأنا الآن لا فرق بيني وبين امرأة عاهِرة، ما صُنت العهد ولا العِرض، ولا راعيت حقَّ أبي، وكيف أراعيه وما راعيت الله أوَّلًا وآخرًا!

فاستِساغتي لأيسر الذنوب جعلت كلَّ شيْء في نظري هيّنًا، وما أن يُصاب المرء بداء أنَّ كلَّ شيْء مُباح، فلا قانون يُوقفه، لا ضمير، لا شيْء.. وفي تلك الحالة لا فرق بينه وبين حيوان يعيش في غابة، بيْد أنَّ الأخير خُلق بلا عقل، أمَّا أنا فقد تنازلت عن عقلي بمَحْض إرادتي!

حاول أن ينتزع عنّي حجابي، ينتزع عَباءة طهري، آهٍ..! يا الله..! كيف لها أن تُدنَّس الآن؟! لكم كنت شريفة عفيفة، أيُعقل أن ينتهي كلُّ ذلك الآن! حالة من الهَلَع تعتريني، أمَّا هو فغير مُبالٍ بما أصابني، على وشك أن أُجنَّ، فأنا أضعف بكثير من أن أردَّ إليه

عقله، كيف وأنا لم أردَّ عقلي إليَّ؟! فلو حاولت أن أستردَّه قبلًا لما عرَّضت نفسي لمثل هذا الخطأ!

أذلك عقابٌ من ربِّ العباد جزاء ما اقترفت من آثام في تلك الفترة الماضية؟! أناجيك يا ربِّ أن قد تُبْت، أن قد عُدْت، أن قدِ استقَمْت، فيا ربِّ أقِلْ عثرتي! أرسل معجزة من معجزاتك تحفظ علي عُذْريَّتي، إكرامًا لأبي ذلك الرجل الطيِّب، يا ربِّ..!

أخذ يُحدِّثني بصوت المشتاق الذي قتله الشوق، وهو في طريق الشفاء الآن..

- آهٍ يا ذكرى.. كلُّ شيْء فيكِ يأسِرني، من كلماتك التي كنت أقرؤها على الشاشة، إلى أن رأيتك وجُنَّ جنوني! ثمَّ إنَّني الآن في حالة ذهول، لم أكن أتوَقَّع أن نجتمع بهذه السرعة، قوامك الذي هيَّج لوعتي منذ أيام هو الآن مُنتصِب أمامي، يُمكن لمسه متى أردت!

- لا تأمُل ذلك أيُّها المأفُون! فذلك -فقط- في خيالاتك الشوْهاء، أنت مريض تحتاج إلى أن تُطبَّب نفسيًّا!

- مريض بكِ أيَّتها الحسناء..

قال هذا وهو يُداعِب وجهي الذي فقد نضرته الآن.

أطلْتُ النظر في ذلك الجدار المنتصب خلفه تمامًا، كما لو أنَّ هناك أمرًا ما جذب انتباهي، فالتفَتَ، مُصوِّبًا نظره حيثما أنظر، قائلًا:

- ماذا هناك؟

كنت قد هروَلْت ناحية الباب، لكن للأسف الشديد! كان ذلك الوَغْد قد أغلق الباب ووضع المفتاح في جيبه..

فقَهْقَه بصوت أفزعني أكثر، وأردف يقول:

- لم أكن أعلم أنكِ ساذَجة إلى ذلك الحدِّ!

- وأنت.. أذكي أم تتذاكى؟!

- ذكي بالطبع.

- وما دليلُك؟

- أنتِ أيَّتها البلْهاء، كلُّ شيْء تمَّ بحِرْفيَّة! فأمِّي لم تكن مريضة، ومع ذلك تغيَّبت عن قصد حتَّى تستسيغين حيلتي، وكنت أعلم أنكِ لن تدخلي إلَّا عندما تسمعين أمِّي تناديكِ، فأعدَدْت لك تسجيلًا مسبقًا، أما زلت في حاجة إلى إثباتات؟!

- داهية.. شيطان.. وَغْد..

- الْزَمي حدودك! وإلَّا جعلتك تكرهين نفسك.

- كرهتها مذ عرفتك أيُّها الحقير!

- كاذبة! بل أحببتها، لقد انصَهَرَت ذاتك في ادعاءات حبِّي الكاذبة، وأنتِ -ككلِّ بلْهاء- صدَّقتِ ما قلت..

- ككلِّ بلْهاء! كم مرَّة فعلت؟! أهنَّ كُثْر؟!

- ضحاياي أكثر من أن تُعدَّ! ولمَ أُسمِّيهن ضحايا؟! بل يجب أن أنعتَهنَّ بالفاجرات!

- وأنت ماذا؟! ما اللقب الذي يليق بك؟!

- قلت لكِ، ولكنَّ ذاكرتك ضعيفة! القيصر.. أنا القيصر..

- بل أنت زِير نساء!

- وما المانع؟ ألم يكن بمَحْض إرادتهنَّ؟!

- كاذب.. أفَّاك.. أثيم.. فجميعهنَّ تمَّ استِدراجُهنَّ مثلي تمامًا!

- بلا عقل أنتِ؟! أي رجل يدعوك لزيارة أمِّه تفعلين؟! لا بدَّ وأنَّكِ تعلمين هدفه، لكنَّك تتغابين، تدَّعين عدم الفهم.. لماذا؟ كيما تبدين ابنة أناس محترمين! كيما أظن أنَّك عفيفة! عذرًا يا عزيزتي.. فلقد وقعتِ في العنوان الخطأ، فأنا أخبُر من النساء ما لا يعلمن هنَّ عن أنفسهنَّ!

- كلُّ ذي خَصْلة يظنُّ الجميع مثله! وأنت هكذا تظنُّ الجميع بلا شرف؛ لأ نَّك عديم الشرف!

صفعني صفعة عنيفة على وجهي، كادت أسناني أن تنفكَّ من محلِّها، لم أبكِ، كما لو أن تلك الصفعة جُرعة من قوة، فبدَوْت كأنَّني لَبُؤة تزأر في وجه غادر يأكل صغارها، رأيت الضعف في عينيه، يالله كم هو ضعيف يدَّعي القوَّة!

لكنَّه حاول أن يواري ضعفه هذا في شيْء منَ السخرية عليَّ، فقال وهو يبتسم كالأبْلَه:

- ما لي أراكِ تتحاملين على نفسك، كما لو أنَّ الصفعة ما أثَّرت فيك!

- أي صفعة أيُّها الأبْلَه! تدري ما الصفعة الحقيقيَّة التي تلقَّيتها؟! أنت أولى صفعاتي، ونهايتها.. صدِّقني!

- أإلى هذا الحدِّ تكرهينني؟!

- أبعَد ممَّا تظنُّ! أمَّا إذا أردت أن أغفر لك كلَّ ما مضى دعني أرحل بسلام، أرجوك! أطلق قيودي، ردَّ إلي نفسي قبل فوات الأوانِ!

- ها ها ها.. يا لكِ من ساذَجة! لا بدَّ أن أروِي ظمئي منكِ، أمَعْتوه أنا كيما أترك غزالًا وقع في شباكي؟! أي جنون هذا..!

- إذًا ما المطلوب؟

- أن تكوني حَمَلًا وديعًا، تفعلين ما أطلبه دون جدال.

- عندما تأتيني بنجم الثريَّا سأفعل! إذًا ما يدور في رأسك أبعد من الخيال.

جُنَّ جنونه، وانتهى طور العقل عند ذلك الحدِّ، اقترب أكثر وأكثر، تلمَّس أطراف أصابعي المرتَجِفة، مالَ نحو وجهي بكلِّ رفق، ظنًّا منه أنَّني استسلمت! وأخذ يقول بصوت حَنون:

- لكِ عبَق مختلف لم أشتمَّ مثله قبل، مختلف كأنتِ تمامًا، مميَّزة عن جلِّ النساء اللاتي عرفتهنَّ واللاتي لم أعرفهنَّ، أفيكِ سحر؟! جائز.. بل مؤكَّد!

بُحَّ صوتي عند هذا الحدِّ، ناشدته الله أن أخرج! فلا تتخلَّى عنِّي أنت أيضًا، فأنا أعلم أنَّ للكلمة وقعها على النفس، فقد أقول كلمة تغيِّر كلَّ الأحداث، وقد يتراجع عمَّا يفعل، قد يعود إليه ضميره الذي يغطُّ في سُبات عميق.

- يبدو أنَّكِ تتوقين لتلك اللحظات مثلِّي تمامًا، لكنَّك تُكابرين يا ذكرى!

- خيالك جامِح.. جامِح جدًّا!

- أنتِ مملكة من الخيالات العظيمة، كيف لي أن أُصدِّق أنَّك واقع ملموس؟! لا بدَّ من فعل شيْء يُثبِت ذلك، لا بدَّ..

هنا أخذ يشقُّ عنِّي ثوب العفاف ليستبدِلَه بآخر ملؤه الدنَس، كان يذبحني على مَهْل، و كانت ثورتي الداخليَّة تتصاعد إلى أن بلغت حدَّ الغليان، وهاهي تفور، فوثَبْت من مكاني وَثْبة لم تكن في حُسبانه، والتقَطْت أقرب أَصِيصٍ، كان هو قد تبِعني في تلك الأثناء، لكنَّ عناية الله لم تفارقني، فتعَرْقل في أقرب طاولة له وارتَطَمت رأسه بالأرض، فتَبِعت أنا ضربة الأرض بضربتي، وانتشَلْت المفتاح من جَيْبه، وهرْوَلْت ناحية الباب، خرجت وأغلقت عليه بالمفتاح خوْفًا من أن يتبعَني، كان يتملَّكني شعور غريب، ودِدْت أن لو يموت كمدًا من

تأنيب ضميره، لم أنزل السلَّم بسرعة البرْق كما كان في مخيِّلتي، بل حاولت فعل شيْء ينَغِّص عليه حياته تلك.

قادني تفكيري المحدود في هذا الوقت إلى انتزاع وُرَيْقة من داخل حقيبتي، ورُحت أكتب فيها:

"أردْتُ منك أن تُميط لِثام قلبي فيتعَرَّى بحبِّك، ولكنَّك أمطْتَ لِثام خُلُقي فتعَرَّيت بذنبي!".

ثمَّ ألقيت بها من تحت الباب، ولست أدري ما الدافع لأن أفعل ذلك؛ لكن.. أعتقد أنَّني أردت أن يعيش محمَّلًا بذنبي طَوال حياته، فتركت هذه الكلمات علَّها تفعل ما أردت أنا فعله.

الفصل الخامس

"جميلة هي تلك اللقاءات العابرة، تتخَطَّى مسافات الزمان والمكان، لتكمُن هناك في أعماق الروح"

طُوبى للغرباء الذين يزرعون ببواطِننا السكينة، وعلى شِفاهنا البسمة، وأعلى نواصِينا الأمل..

عندما اعتلَيْت الحافِلة وألقيْت بجسدي على أقرب مقعد، جلسَتْ بجواري امرأة أربعينيَّة، كنت أنا غارِقة في بحار دموعي، عابِرة مع همومي، متأجِّجة بنيران حماقاتي، شاكِرة لله أن نجَّاني، على كلٍّ.. كنت في تلك اللحظات مُضطَرِبة المشاعر.

أخرجتِ المرأة مَنديلًا ورقِيًّا وقدَّمته لي وهي تبتسِم، ثمَّ ربَّتَتْ على كتفي بحنُوٍّ بالغ، كحنوِّ الأمِّ على طفلها تمامًا، شكرت جميل صنعها، بدت لي باهِتةً ككلِّ شيْء، فأدمُعي جعلتِ الناس تبدو أمامي كمرآة عاكسة خُيِّم عليها بالماء، لكن تبيَّن لي في الحال أنَّني أعرف تلك المرأة، أظنُّني تعامَلْت معها يومًا ما..

على كلٍّ.. آثرْتُ الصمت، فأنا بالكاد أُبصِر أمامي، ولا طاقة لي بالحديث مُطلقًا، ابتسمتِ المرأة ابتسامة أسفرت عن أسنانها المصطَفَّة بانتظام، ثمَّ تنَحْنَحَت قليلًا، وأردفَت تقول:

- أنتِ ذكرى ابنة الحاجِّ ياسين موظَّف الشؤون، أليس كذلك؟ تغيَّرتِ كثيرًا، بالكادِ عرفْتُك، لكنَّك جميلة كما أنت..

- هو كذلك يا سيِّدتي.

- أمُّكِ رحمها الله كانت صديقة عزيزة على قلبي.

- أنتِ تعرفينها؟ عقلي يقول إنَّني رأيتك من ذي قبل، لكن أين؟ لست مُتذَكِّرة!

- أنا أسكن على بعد ثلاثة شوارع من منزلكم.

- غريب!

- ما الغريب يا بنَيَّتي؟

- لم أركِ من قبل، أو ربَّما رأيتك لكن لم أنتبه.

- كنَّا قد غادرنا هذا الحي بعد وفاة والدتكِ ببضعة أشهر، حيث كنَّا نقطُن بالإسكندريَّة، لكن عُدْنا منذ أيَّام.

- عوْدًا حميدًا سيِّدتي.

- ما الخَطْب يا عزيزتي؟ لماذا كنت تبكين؟

- لا شيْء، فقط بعض تقَلُّبات الحياة، تطرَأ علينا دون سابق إنذار، فتُهيل أسقُف سعادتنا، لننكبَّ على أنقاضها بعض الوقت، إلى أن يأذن الله لنا باسترداد بقايانا.

- أتمَنَّى أن تكوني بخير، واعذريني يا عزيزتي لأنَّني لم أسأل عنك بعد وفاة والدتك، حيث كان من واجبي أن أقوم أنا مقامها، لكنَّها -أيضًا- تقَلُّبات الحياة، فالحمد لله أوَّلًا وآخرًا.

- لا عليكِ، كلُّ شيْء سيكون على ما يُرام، إقامتكم هنا دائمة؟

- دائمة بإذن الله إن لم يجدَّ جديد.

- لماذا سكنتمُ الإسكندريَّة كلَّ هذه السنوات؟

- تنسيق الثانويَّة العامَّة أحال ابني فارس إلى كلِّيَّة الهندسة بجامعة الإسكندريَّة، ثمَّ إنَّ زوجي -رحمه الله- كان قد وجد عملًا مُناسبًا هناك، وهو الآن شاب ما شاء الله، يشبه أباه، طويل مثله، ذا

جسم رياضي، وعيون سوداء، وبشرة خمرية، وشعر ناعم، سبحان الله!

ردتْ ذكرى على استحياء:

- من شابه أباه فما ظلم،إذًا لماذا قرَّرْتمُ العودة من جديد؟

- أنهى فارس دراسته الجامعيَّة، وتُوُفِّي زوجي، والحظُّ ألقى بفارس إلى القاهرة ثانية، فمقرُّ عمله هنا، فلماذا نبقى في الإسكندريَّة؟!

ياللأقدار! ويكأنَّ الله يُهَدْهِد قلوبنا التي خرِبت بأن يرسل إلينا أُناسًا ينفخون ببواطِنِنا السعادة من جديد، حديثي مع تلك المرأة جعلني أتناسى وحشيَّة الحياة، لكنَّه لم يجعلني أنسى ذنبي قطُّ.

لست أدري إن كانت هذه رسالة من الله، بأنَّه ما زال ينتظرنا الأجمل.. أم أنَّها بواعث السكينة.. أم ماذا؟

على كلٍّ فأنا تائبة عائدة نادمة، فيا الله اغفر زلَّتي! اغفر! فإنَّه لا يغفر مكنون خطايانا وظاهرها إلَّاك.

ربَّتتِ المرأة على كتفي ثانية، مُشيرة إلي بالنزول، فلقد وصلنا، ابتسمت لها كما لو أنَّني أعتذر عنِ انشغالي بالتفكير.

- إليك يا بنَيَّتي أن تعتبريني بمقام أمِّك، وأن تأتيني متى تشائين، إيَّاك والخجل! فأنتِ ابنتي التي لم أُنجِبها، اعلمي ذلك جيِّدًا، إليك عنواني ورقم هاتفي، ستجدينني متى أردت ذلك.

- شكرًا لكِ سيِّدتي على كلِّ شيْء.
- إيَّاكِ أن تنسي ذلك.
- سآتيك في القريب العاجل إن شاء الله، فقط رَيْثما تتحَسَّن أُموري.
- كوني بخير يا ذكرى.
- وأنتِ كذلك.
- إلى اللقاء.
- إلى اللقاء.

الفصل السادس

"البوْح مُضرٌّ جدًّا، والكتمان قاتِل، والقلب هو المتضَرِّم بهما"

جاء حسن -كعادته- إلى العمل مُتأخِّرًا،بجسمه البدين، وشعره الأسود المجعد، وبشرته السمراء، كان النُّعاس يُراوِده عن نفسه، يسُبُّ وسائل المواصلات اللعينة، ينظر إلى مكاتِب المَوَظَّفين الكئيبة مثلهم تمامًا، انحنى قليلًا ليمسح حذائه الذي غطَّاه التراب، اتجه صوْب مكتب المهندس فارس/ صديقه:

- السلام عليك يا فارس.
- وعليك السلام يا حسن.
- ما بال مهندسنا الجميل مَهموم؟
- لا شيْء يا حسن، لا شيْء..
- على حسنٍ هذا الكلام! فأنا أحفظك أكثر منك..
- أفكِّر في أن أترك العمل هنا، لكن -كما تعلم- أن يجد المرء عملًا مُناسبًا هذه الأيَّام لهو شيْء يُشبه المستحيل.
- ولماذا تترك العمل منَ الأساس؟
- أنت تعلم ما أُومِئ إليه يا حسن.
- تقصد المهندسة "شيرين" ابنة صاحب الشركة.. ها ها ها..
- ما شاء الله! منذ متى هذا الفهم وذلك الذكاء.
- من يومي وأنا هكذا! فقط أنت الذي تتعَنَّت وتأبى أن تعترف بذلك، لكن ما الذي يجعلك تفِرُّ من مُلاحقات شيرين المستمِرَّة يا فارس؟ ما الضيْر في أن ترتبط بها؟

- كِلانا من طبقة لا يُمكن أن تلتقي هي والأخرى بحال من الأحوال.

- يُمكن يا فارس، فكلُّ شيْء جائز.

- ثمَّ إنَّ الفتاة يا صديقي تتمَتَّع بمُيوعة مُفرِطة حدَّ الاشمِئْزاز، وفي تلك الحالة ستُصاب أمّي بكلِّ الأمراض المزمِنة، فهي لا تحِبُّ مثل هذا النوع من الفتيات، فلقد شجَّعت رفضي لضحى ابنة خالتي؛ لأنَّها تنتمي إلى هذا النوع.

- لم أكن أعلم أنَّ صديقي يتمَتَّع بكلِّ هذه الجاذبيَّة، هنيئًا لك!

- غمز فارس لحسن وهو يضحك، ثمَّ قال:

- دعْكَ من مزاحك اللَّزِج هذا، وفكِّر معي في حلٍّ لهذه المشكلة.

- فورًا صيَّرتها مشكلة!

- كلُّ شيْء عندك بسيط يا حسن، بسيط جدًّا.

- لنقل إنَّ الحياة لا يُمكن أن تُعاش إلَّا هكذا.

- كنت أفكِّر في السفر إلى السُّعوديَّة، ولكن...

- ولكن ماذا؟

- السُّعوديَّة يا صديقي على وشْكِ أن تُعلِن إفلاسها! أخشى أن تتجَمْهر الجموع في الغد القريب مُعلِنة ثورتها.. فنحن المصريّين ما إن نحلُّ ببلد إلَّا وينتقل نحْسُنا إليه، فلا نتركه إلَّا وقد لقي حتْفَه، لنوَلِّ وِجهتنا صوْب الإمارات قليلًا..

ضحك حسن من تنَدُّر فارس قائلًا:

- تمزح في أحْلَك الظروف، فكاهتك دومًا يشوبها نوع من النقد اللاذِع، فلا المرء يعلم إن كنت جِدِّيًّا في حديثك أم أنَّك تمزح!

- لن يختلف الأمر كثيرًا في كلتا الحالتين.

- ما لي أراك وقد حملت الكون بأسْرِه على عاتقك؟!

- ستعلم عندما تسوق الأمور في مسارها الصحيح، ويحدث عندك نوع من ضبط المشاعر التي امتزجت كلُّها بنوع من اللامُبالاة.

- ها ها ها.. لن يحدث هذا، إلَّا إذا...

- إلَّا إذا...؟

- تزَوَّجت من شيرين، ها ها ها..

- فلتذهبا معًا إلى الجحيم!

- كنت أمزح يا صديقي، فأنا أعلم أنَّ هذا الأمر منَ الصعب أن يحدث.

- بل مُحال!

- اصمُت، فلقد وصلت! هيَّا لتتلَقَّى جُرْعة الميُوعة الصباحيَّة لتبدأ نهارك بسلام.

- حسن!

- سأصمت.

- هكذا أفضل، استعِدَّ فستُلقي شيرين التحيَّة، وتتسَلَّمني منَ الآن إلى أن يحين موعد ذهابي!

- صباح الخير يا شباب، كيف حالكم؟
- صباح الخير.
- وأنت كيف حالك يا فارس؟
- بخير.
- لا أظنُّ ذلك، فوجهك يبدو شاحِبًا.

نظر فارس إلى حسن أن أنقِذني يا رجل! فلست في حالة مزاجيَّة لأتحمَّل سماجَة تلك المرأة، ما لي أراها تهم بي أينما ولَّيْت وجهي؟! كارثة أن تظنَّ بنفسها زُلَيْخا امرأة العَزيز، وهُيِّئ لها أنَّني يوسف عليه السلام!

- ما بك يا فارس، أين شرَدْت؟
- هاهنا، سأذهب الآن؛ لأنَّه علي مباشرة الموقع بنفسي.

همْهَمَت شيرين بصوت خافِت تجاهله فارس تمامًا:

- تهرب مُجدَّدًا! أتحتاج إلى مساعدة؟
- لا.. شكرًا لك يا شيرين.

قال هذه الجملة ونظر ثانية إلى حسن الذي كاد ينفجر من كتم ضحكاته، فتعابير وجهه فاضِحة فوقما حدٍّ، حدَّثته نفسه بتلك الجملة التي يحفظها عن ظهر قلب: "لن يشعر بك إلَّاك".. خرج، وشيرين تتأفَّف مُجدَّدًا من صدِّه لها، بينما هو يتأفَّف من مُلاحقتها له.

الفصل السابع

"ابتلِع غصَّتك بسلام، اقبُر تلك الآهات التي تفَوَّهت بها توًّا، اقطع نهر الدموع لتكون قد غسلت علَّتك".

عدْتُ إلى المنزل كمن أصابته الشمس بضربة في رأسه، فكنت لأول مرَّة في حياتي يشحَب وجهي إلى هذا الحدِّ، كانت دموعي قد أعلنت عن حزني الشديد، فما إن أبصرني أبي بهذه الحالة حتَّى انتفض من مكانه كالذي أُصيب بلَدْغة جعلته يقفِز من محلِّه، هرَع إليَّ، رأيت في لهفته تلك لهفة الأمِّ والأب في آنٍ واحدٍ..

عندها تضاعَفَت أدمُعي ندمًا على ما فرَّطت في جنب الله! ووجعًا على ما كنت على وشْكِ أن أفعله بهذا الرجل الذي أفنى عمره لأجلي، تفنى أيَّامه لتُزْهِر أيَّامي! يالله بماذا أُخبِره!

كنت قد ألقيت بجسدي المتعَب وقُواي التي خارَت على السرير، فطرق أبي الباب عدَّة طرقات، ثمَّ حرَّك مَقبَض الباب ودخل، وقال بصوت مُتحَشْرِج من فرْط خوفه عليَّ، وهو يمسح على رأسي بيدين حانيتين:

- ماذا بكِ يا صغيرتي؟

- لا شيْء يا أبي، لا شيْء..

قلت هذه الجملة بتلَعْثُم، ففَهِمَها أبي بالكاد؛ لأنَّ صوت البكاء قد نحَّا مخارج أحرُفي جانبًا.

- أأصابك مكروه يا عزيزتي؟

- لا شيْء..

- ما هذا اللَّاشيْء يا صغيرتي؟! بالله أفصحي عمَّا في جَعْبَتك!

ازداد نحيبي، وها أنا على وشْك أن أُصاب بالهَذَيان، ماذا لو بُحْت بما يضيق به صدري! في تلك الحال سيُصدم أبي ويُصيبه مَكروه ما، وعندها لن أُسامِح نفسي، فأنا ما سامحت نفسي بعد..

- فقط مُتعَبة يا أبتِ، مُتعَبة حدَّ الموت.

- هيَّا لنذهب إلى الطبيب.

- لست في حاجة إلى طبيب.

- لا يُمكِن أن أراكِ ترحلين ببُطْء شديد أمام ناظرَي وأقف مكتوف الأيدي!

- لا عليك يا أبي، فقط اتركني الآن أنام في سلام.

خرج أبي وهو يُحدِّث نفسه، وقدِ انهمرت دموعه بغزارة إلى أنِ ابتلَّت لِحيَته التي قدِ اكتَسَت بالشَّيْب، تناول جوَّالي وراح يُهاتِف منى صديقتي:

- السلام عليكِ، كيف حالك يا بنَيَّتي؟ أنا عمُّك ياسين والد ذكرى.

- وعليكَ السلام، كيف حالك يا عمِّي الحاجّ ياسين؟

- بخير يا بنَيَّتي، لكنَّ صديقتك ليست بخير مُطلقًا!

- ماذا هناك؟ أأصابها مَكروه لا قدَّر الله؟

- ليتني أعلم يا بنَيَّتي، ولهذا اتصلت أُناشدك الله أن تأتي على الفور، فحالتها في تدهور مُستمِرٍ مذ وطِئت بقدمها المنزل منذ ساعة تقريبًا.

- حسنًا يا عمّي، ما هي إلَّا مسافة الطريق وأكون عندكم.

- تصلين بخير يا بنَيَّتي.

- إن شاء الله.

أنهى أبي المكالمة مع منى وخرج لصلاة المغرب، قبل أن يخرج عاد ليتفَقَّدني، فتمَثَّلْت بالنائمة، فانطلق وهو يُتَمْتِم قائلًا:

" اللهمَّ احفظ صغيرتي من كلِّ سوء، ربِّ لا تُرِني فيها مكروهًا، اللهمَّ ارْعَها بعِنايَتِك، رُدَّها يا ربِّ إلي في أقرب وقت، فلا أحد لي في هذه الحياة إلَّاها.."، ثمَّ ولَّى وجهَهُ صوْبَ المسجد.

ما إن عاد أبي من المسجد حتَّى وصلت منى، فهَرَعا معًا صوْبَ غرفتي، كانت تلك النيران التي يحترق بها قلبي قد تصاعدت إلى رأسي، فأُصِبْت بالحمَّى، فكنت أشبه بمن يحتَضِر، نظرت بعينَي اللتين في حالة من الدُّوَار إلى وجه أبي، فكنت لأوَّل مرَّة أرى ضعف أبي، يالله..! لكم كنت حمْقاء! كيف لي أن أصل بأبي إلى هذه الحال؟!

احتضنَتْني منى وهي في حالة بكاء هِسْتِيريّ، وكانت أطرافها في ارتِجاف مُستمِرٍ، تُحاول أن تتحَدَّث، لكنَّ صوتها كان غائبًا في دموعها، فأخذت تمسح على وجهي، ثمَّ أشارت إلى أبي أنِ اتَّصِلْ بالطبيب في الحال..

حاولا جاهدَيْن أن يُقوِّما ضعفي، وأن يجعلا أطرافي تتماسك قليلًا كمن يُعلِّم طفله كيفية الجلوس لأوَّل مرَّة، فأشرت إليهم أن بالله اتركوني!

بعد مرور وقت قصير -لم أتبَيَّن كمِ المدَّة بالضبط، فأنا بالكادِ أُحدِّد ملامح مَن هم حولي، وأسمع كلماتهم- كانت سيَّارة الإسعاف قد وصلت إلى المنزل، حُمِلت إلى السيَّارة وتبعني كلٌّ من أبي ومنى، في تلك الأثناء لم يكُفَّ أبي عنِ الدعاء، كم من دمعة ذرَف في تلك الليلة البائسة! بعدما شخَّص الطبيب حالتي أمر بأن تعَلَّق لي محاليل في الحال، ومنع منعًا باتًّا من دخول أحد إلى غرفتي، كم من الوقت مرَّ وأنا على تلك الحال! لم أعرف إلَّا عندما استفَقْت وأخبرتني منى، حيث قالت لي:

- حمدًا لله على سلامتك.
- سلَّمك الله يا صديقتي.
- كِدْنا نُجَنُّ يا غاليتي يومين بالتمام والكمال!
- أين أبي؟
- ذهب لإحضار بعض الأدوية والطعام.
- ماذا حدث يا منى؟
- لا شيْء، المهمُّ أنَّك الآن بخير.
- الحمد لله على كلِّ شيْء، فلأسأله أن يسامحني.
- على ماذا؟

- لا شيْء يا منى..
- غامِضة أنتِ منذ فترة، لن أتحامَل عليك الآن.
- أعتذِر يا منى، فهذا الوقت أنت بحاجة إليه أكثر منِّي.
- أبلْهاء أنتِ يا ذكرى؟! على ماذا تعتذرين!
- كَوْني أطَحْت بفرحتك عرض المستشفيات عوضًا عن قاعات الأعراس.
- لن أسامحك إذًا إلَّا إذا...
- إذا ماذا؟
- غنَّيتِ لي يوم عُرسي.
- سخيفة أنتِ كالعادة!

تضحك منى وهي تقول:

- بعض ما عندكم يا رفيقة العمر.

هاهو عمّي الحاجّ ياسين قد وصل، سيُسْعده جدًّا أنَّك استفَقْتِ يا ذكرى.

تهَلَّل وجه أبي ما إن أبصرني أجلس القُرْفُصاء، اتَّسَعَت خطواته كما لو أنَّه أراد يعبُر الرَّدْهَة بقَفْزة واحدة، ابتسَمْت لكوني رأيت عينَي أبي تلمعان إلى هذا الحدِّ، اقترب منِّي وطبع قُبْلة على جبيني، ثمَّ تفَوَّه بصوت مُعطَّر بالسعادة:

- حمدًا لله على سلامتك يا صغيرتي، يا الله.. كم أنت لطيف!

- الحمد لله يا أبي.
- بم تشعرين الآن؟
- إنَّني الآن أفضل حالًا.
- ليتمَّ الله شفائك.
- اللهمَّ آمين!

ودِدْت أن لو أقو ل له: اسأله يا أبَتِ أن يغسلني من آثامي! لكنِ استعَضْت عن ذلك بدمعة مسحتها سريعًا خشية أن يُبصِرها أبي.

جاء الطبيب بعد سُوَيْعات معدودة، قائلًا:

- حمدًا لله على سلامتك أيَّتها الجميلة.
- سلَّمك الله يا دكتور.
- أهكذا تُفزِعين أباك إلى هذا الحدِّ؟
- لم يكن عن قصد.
- أعلم ذلك، ليشفك الله، ويحفظ لك ذلك الرجل الطيِّب.

ابتسَمْنا جميعًا، واتجهت أبصارهم صوْبي كنوع منَ الاِطمئنان عليَّ، ثمَّ أردف الطبيب قائلًا:

- سنسمح لكِ بالخروج آخر النَّهار.

ردَّ أبي بلَهْفَة:

- أصِدقًا ما تقول يا دكتور؟

- نعم، فهي الآن في حالة مُستقِرَّة.
- لن تعود إليها تلك الهَلْوَسات التي كانت تهْذي بها؟
- لن تعود، كانت تأثير الحمَّى فقط.

التفَتُّ إليهم في هلع بيّنٍ:

- أي هَلْوَساتٍ؟

الجميع يُقَهْقِه تَهكُّمًا على ردَّة فعلي تلك، فجاءني الجواب من منى:

- يبدو أ نَّك جئت إلى المشفى لتُعْلني توبتك هنا.
- ماذا قلتُ بالضبط؟
- لا شيْء يا عزيزتي.

تنفَّسْت الصُّعَداء، مُتمَنِّية ألَّا أكون قد فضَحْت ما كان من أمري، ثمَّ ذهب أبي ليُتمِّم إجراءات الخروج، وها أنا أعود إلى منزلي كمغترب طالت به الغربة، متى أتأقْلَم من جديد ومسكني؟!

الفصل الثامن

"في نهاية المطاف لن يحترق أحد لأجلك، وسيتصاعد دخَان احتراقك بما آلمك، وسيَشْتاط الجميع غضبًا، ليس لأجلك؛ بل لأنَّ رائحة الدخَان تزعجهم".

لم يتغَيَّر شيْء في المنزل، فجدرانه الصمَّاء كما هي، شاهدة على كلِّ مواقفي، بيْد أنَّني أصبحت خاوِيَة، فأن تُصاب بـ "اللَّاشيْء" لهو أمر مُزعج للغاية، وخزات يتلَقَّاها قلبي بين الفيْنَة والأخرى، الجميع حولي، إلَّا أنَّني أسبح في عالم خاصٍّ بي، عالم مِلْؤُه ذنب الماضي وندم الحاضر!

كانت منى قد ذهبت إلى منزلها منذ بضع ساعات، وهاهو الليل قدِ انتصف، فطرق أبي باب غرفتي يستأذنني في الدخول، فأذِنْت له، تنَحْنَح قليلًا وهو يُداعِب لِحيَتَه بأطراف أصابعه قائلًا:

- عساكِ بخير الآن يا صغيرتي؟
- الحمد لله، بخير يا أبي..
- أما آن لكِ أن تبُوحي بما يختلِج في صدرك ويضيق به؟
- لا شيء يا أبي..
- منذ متى وأنتِ تُخفين عنِّي شيْئًا!
- صدِّقني! لو كان هناك أمر ما لأخبرتك به.
- إذًا ما الذي أصابك فجأة؟
- أمر الله يا أبي..
- ونِعْمَ بالله، لكن...
- لكن لا تشغل بالَك يا عزَّة نفسي، فأنا الآن بخير، اطمئنَّ!
- سأطمئنُّ، لكن لن أكُفَّ عنك حتى أعلم ما تُخفين من أمرك.

- لنبدأ عهدًا جديدًا، ونفسخ عقودنا الماضية..

ابتسم أبي ابتسامة طويلة جعلتني أبتسم من فرط سعادتي بها، ثمَّ قال:

- أهكذا تفِرّين من إلحاحي بحيلة جديدة؟!

- لم تكن حيلة يا أبي بقدر ما هي نوع من التجديد، فكلُّ شركات العالم يا أبي تقوم بتجديد عقودها، فلم لا نجَرِّب الأمر؟

- أفحَمْتِني بجوابك!

- تلميذتك يا أبَتِ، ومنك تعَلَّمت.

- بعد تلك الجملة قَهْقَهَ أبي كما لو أنَّني داعَبْت خصْرَه بأطراف أصابعي، دنا منِّي، ثمَّ احتضنني بحنان قائلًا:

- كوني بخير يا ابنتي لأجلي، أُناشدك الله أن تعتني بنفسك جيِّدًا.

- سأفعل يا أبي، فلا شيْء يعنيني في هذه الحياة إلَّا أن تكون راضيًا عنِّي.

- مسح على رأسي، واتجه إلى غرفته لينام في سلام، واتجهت أنا صوْبَ الحمَّام وتوَضَّأت، فكنت مع كلِّ قطرة ماء أغسل بها ذنبي، تتبعها قطرة دمع تأكيدًا على أنَّني أبرأ من ذنبي، والله على ما أفعل شهيد..

خرجت، وانتصَبْت في مِحراب غرفتي، واستقمت لله ربِّ العالمين، أُناجيه، أُناديه أن يغفر لي ما مضى، وأن يرزقني حاضِرًا نقِيًّا مُزهِرًا..

صدق ربُّ العِزَّة حينما قال: (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) [آل عمران: ١٤٠]، فالأيَّام دُوَل، والأفعال نزوات تُصيبنا من آنٍ لآخرَ، فلا الأيَّام باقية، ولا أفعالنا ثابتة، فلا المرء في طاعة دائمة، ولا هو في غفلة أبدِيَّة، فتجرُّع كأس منَ المعصية لا بدَّ وأن يُشَعْشَع بكؤوس منَ الطاعات، وطالما أنَّنا نصطبغ بصفة البشريَّة فالخطأ وارِدٌ لا مَحالة؛ لكن.. لا بدَّ من صفعة قوِيَّة نستفيق على إثرها..

لست أدري ما الذي جعل أبي يستفيق في هذا الوقت، فما إن سلَّمْت والتفَتُّ عن يساري حتَّى وجدته يجلس على الكرسي الذي بجواري، قال والبشاشة تعتلي وجهه:

- تقبَّل الله منكِ يا عزيزتي.
- منَّا ومنكم يا أبي خالص الطاعات.
- أتمنَّى أن لو تذَكَّرْتني ولو بدعوة.
- بالطبع يا أبي، ما الذي أيقظك في هذا الوقت؟
- لم أستطعِ النوم، وجئت لأُثَرْثِر معك في أمر تذَكَّرْتُه.
- ما هو؟
- جارتنا أمُّ أحمد، تلك التي تسكن بمُفردها في الشقَّة التي في الدور الأرضيّ، سألتني عنك، وقالت لي: لمَ تأخَّرْتَ عنِّي هذا الشهر في إرسال ثمن الدواء؟! كانت ذكرى تأتيني به في الموعد، ما الذي حدث؟! أي دواء يا بنَيَّتي تقصِد المرأة؟

- يا الله! لقد مضى موعد دواء المرأة وأنا في المشفى! جارتنا يا أبي معها مرض مُزْمِن، وثمن دوائها باهِظ، فكنت أُقدِّم لها كلَّ شهر ما استطَعْت مَعونةً لها، فالمرأة لا أحد لها مُذْ هجرها أبناؤها.

- الآن فقط علِمْت أين يذهب باقي مصروف المنزل، بارك الله فيك يا عزيزتي!

- وأنتَ يا أبي، ماذا فعلت عندما أخبرَتْك أمُّ أحمد بهذا؟

- أخرَجْتُ مبلغًا وسلَّمْتُه لها، واعتذَرْت مُخبِرًا إيَّاها بأنَّك مريضة.

- الحمد لله، الآن فقط ارتاح بالي.

- سأذهب لأنام، فأنا -أيضًا- الآن ارتاح بالي، تُصبِحين على خير.

- وأنت من أهل الخير أبي العزيز.

الفصل التاسع

"ولا تنسَ أولئك الذين قوَّموا هَشاشَتك وأنتَ تجُرُّ أذيال الخَيْبة، فلولاهم ما وصلت أنتَ".

بعدما مضى شهر بالتمام والكمال على تلك الحادثة، وفي صباح يختلف عن كلِّ الصباحات، صباح يُشبه قطرات المطر -تلك التي أعشقها-، صباح يُهَدْهِد قلبي بنسيمه العليل، ونقاؤه قد أسبغ على قلبي صفة النقاء أيضًا، تذَكَّرت تلك المرأة التى رَبَّتت على قلبي حينما كنت في أمَسِّ الحاجة إلى ذلك، تذَكَّرت المرأة التي أرسلها الله لي في أحْلَك الظروف، يالله..! كم أنا بحاجة للحديث مع تلك المرأة، سأهاتفها في الحال..

- السلام عليكِ.
- وعليكِ السلام، من معي؟
- ذكرى، أنا ذكرى.. أتذكرينني؟
- بالطبع، انتظرت هاتفك كثيرًا، لكنَّك لم تفعلي.
- أعتذر منكِ! كنت مريضة طَوال الفترة الماضية.
- عافاك الله يا بنَيَّتي، كنت سآتي لزيارتك، لكنَّ أختي وابنتها هنا لزيارتي منذ أيَّام.
- لعَلَّه خير، كأنَّك فعلتِ.
- المهمُّ أنَّكِ بخير الآن.
- نعم بخير.
- ما رأيك في أن تأتي لزيارتي اليوم، وبالمرَّة سأعَرِّفك على ابنة أختي، هي في نفس عمرك تقريبًا.
- اليوم..؟ ولم لا؟

- إذًا أنا في انتظارك.

- سأبَدِّل ملابسي وآتيك على الفور.

- تَصِلين بخير يا بنَيَّتي.

أجرَيْت اتِّصالًا هاتفيًّا بأبي لأُخبره بأنَّني ذاهبة لزيارة جارتنا أمِّ فارس، فوقع الاِسم على أبي موقع الدهْشَة، فكما لو أنَّ الاِسم أخذ يطرُق على ذاكرته لبضع ثوانٍ، ثمَّ ردَّ قائلًا:

- يالله..! كيف حالها تلك المرأة الطيِّبة؟ منذ وفاة أمِّك ونحن لا نعلم عنها شيئًا! كما لو أنَّ الطيِّبين يغيبون جملةً واحدةً.

- يبدو أنَّها بالفعل امرأة طيِّبة، أخبرتني بأنَّها كانت مُقرَّبة من أمِّي.

- كانت أعزَّ أصدقائها.

- لكنَّكَ لم تُخبرني عنها يا أبي!

- تعلمين يا صغيرتي أنَّني أتمَتَّع بذاكِرَة سَمَك! وكثرة الاِنشغالات يا بنَيَّتي..

- لعلَّه خير.

- لا تنسَي أن تبَلِّغيها سلامي الحارَّ، ولتدعينها لتَحْتَسِي معنا فِنجالَ قهوة في أقرب وقت.

- حسنًا سأفعل، إلى اللقاء أبي..

- إلى اللقاء يا صغيرتي.

اتجَهْتُ صوْبَ خِزانة ملابسي، اخترت ثوبًا مُهندَمًا بالرغم من أنَّه تمَّ اختياره عشوائيًّا، ووضعت على رأسي حجابًا يتناسَق معه، وحملت حقيبتي، لأعبر الشوارع الثلاثة التي تفصلنا عن جارتنا تلك بكلِ أريَحِيَّة، كنت لأوَّل مرَّة مُذْ زُجَّ بي إلى الفيسبوك أشعر بهذا السلام الداخليّ، كنت أُطلِق ابتساماتي في كلِّ اتجاه، أتساءل: ماذا لو أنَّني في زمن الصمت؟ ترى هل كنَّا سنكتفي بتلك الاِبتسامات؟

ضغَطْت على الجرس مرَّتين مُتتاليتَيْن، جاء على إثر الضغطة الثانية صوت رجل، خشيت أن أكون قد أخطأت العنوان، همَمْت أن أتزَحْزَح من مكاني لأعود من حيث أتَيْت، لكن فجأة انتصب أمامي شابٌّ أنيق تبدو عليه سمات الخُلُق القويم، تنَحْنَحْت بعد شعور بالخَجَل، ثمَّ قلت:

- أمنزل خالتي أمِّ فارس هذا؟

قال وهو يبتسم ابتسامة أسفرت عن طاقم لُؤلُؤيٍّ، وقد غضَّ طرفه عنِّي، لست أدري أخَجَلًا أم أنَّها عادة:

- أجل.. أقول لها من؟
- ذكرى.. قل لها: ذكرى..
- حسنًا.. تفَضَّلي بالدخول.
- شكرًا لك، لتُنادِها أفضل.
- كما يحْلُو لكِ..

دخل ذلك الشابُّ، وما هي إلا ثوانٍ معدودة حتَّى كانت السيِّدة أمُّ فارس قد حضرت، واحتضنتني احتضان أمٍّ لابنتها قائلةً:

- كيف حالكِ يا ذكرى؟ لقدِ اشتقتُكِ كثيرًا!
- بخير والحمد لله، وأنا -أيضًا- اشتقت إليكِ!
- تفضَّلي يا بنَيَّتي بالدخول.
- شكرًا لكِ سيِّدتي.
- لتُناديني أمِّي إن كان هذا لا يُزعِجُكِ..
- يُزعِجُني! يالله..! لكم هذا شرف لي يا أمِّي..

أشارت إلي بأن أتبعها، فمرَرْنا برَدْهَة كبيرة عند باب الشقَّة، ثمَّ دخلنا غرفة كانت عن يمينها هي غرفة الضيوف، فجلست وخرجت هي، وبعد دقائق عادت إلي ومعها امرأتان؛ إحداهما أربعينيَّة، والأخرى عشرينيَّة، ثمَّ ابتسمت وهي تقول:

- أُعَرِّفكم.. هذه ذكرى جارتنا، ابنة صديقتي سعاد رحمها الله، تعرفينها يا مها..

فرَدَّت المرأة:

- نعم.. كنت أعرفها عزَّ المعرفة، رحمها الله، كيف حالك يا بنَيَّتي؟
- بخير سيِّدتي.
- وكيف حال والدك الكريم؟

- في أحسن حال.

تستأنف السيِّدة أمُّ فارس حديثها مُجدَّدًا:

- وهذه ضحى ابنة أختي مها.
- أهلًا بك يا ضحى.

أحسَسْت كما لو أنَّها على وشْكِ أن تقضِمني بعينيها، أو تبتَلِعَني، المهمُّ أنَّها ما أحبَّتني من أوَّل لقاء، فرَدَّت بفُتور بيِّنٍ:

- أهلًا بك يا... نسيت اسمك معْذِرة!
- ذكرى..

ثمَّ وجَّهَتِ الحديث لخالتها قائلةً:

- منذ متى والوَشائج بينكم وبين ذكرى مُترابِطة؟
- منذ عمر ولَّى يا عزيزتي، بيْدَ أنَّنا سافرنا وانقطعتِ الأواصِر، والحمد لله فهي تلْتَئم من جديد.
- أكان فارس يعرفها منذ الصِّغَر؟

هنا تبَيَّنْت ما سبب حنَق هذه الفتاة عليَّ.. ياللكارثة! إنَّها تظنُّ أنَّ ثمَّة عَلاقة بيني وبين ابن خالتها!

- يعرفها منذ الصِّغَر، لكن لا أظنُّ أنَّ أحدهما يذكر الآخر الآن..

هنا تنَفَّستِ الفتاة بأريَحِيَّة، كما لو أنَّها استعادت روحها مُجدَّدًا بعدما كانت على وشْكِ أن تُفارِقها أبدًا.

خرجت كلتا المرأتين، وبقِيت أنا والسيِّدة أمُّ فارس، قدَّمت لي كوبًا منَ العصير، ثمَّ راحت تسألني عن أحوالي، وعن دراستي أين انتهت؟ وأبي، وأخي، وما إن ذكرت أخي حتَّى اغرَوْرَقَتْ عيناي بالدموع، فدنت منِّي ومسحت بأطراف أصابعها الحانية على خدِّي، وهمَسَت بصوت خافِت:

- ما الخَطْب يا ابنتي؟

- أخي مُغَيَّب قسْرًا منذ ما يزيد على العام، ومن وقتئذ ونحن لا نعلم عنه شيئًا.

- يالله..! لكم يُحزِنني أن أسمع مثل هذا الخبر!

لمحت في عيني المرأة دمعة تتراقص بين مآقيها، لكنَّها تُقاومها، تريد أن تتجَلَّد أمامي، فالمرأة جد رأيتها تقوم بدور الأمِّ، أُوَسْوِس لنفسي: أينك أيَّتها المرأة –التي تُشبهين النسائم الباردة في صيف ما أشد قيظه- منذ زمن ولَّى؟!

في مدار حديثنا تبَيَّنت أنَّ السيِّدة أمَّ فارس امرأة حافِظة لكتاب الله، مُقيمة لحدوده، فاتفَقْنا على أن أزورها مرَّتين في الأسبوع لأستعيد ما بات في غَياهِب النسيان من مَحْفوظي لكتاب الله، وكان هذا الأمر من دواعي سرورها، وسروري أيضًا.

جميل أن تجد طريقك إلى الله، لكنَّ الأجمل من ذلك أن تجد من يُعينُك على أن تسبُر هذا الطريق حتَّى نهايته، فمتى وجدت هذا النوع من الناس تشَبَّث بهم، فهم مَناط الثرَيَّا.

يُصادف خروجي منَ الباب خروج ذاك الشابِّ الذي استقبلني عندما أتيت، تنحى جانبًا مُعتذِرًا عن مُداهمَتِه إيَّاي فجأةً، ودَّعتْني السيِّدة أمُّ فارس/ أمِّي، وانطلَقْتُ.

تذَكَّرت تلك القصيدة التي كان يُنشِدها مشاري راشد: "أَغِيبُ وَذُو اللَّطَائِفِ لَا يَغِيبُ"، فرُحْتُ أُدنْدِن بها إلى أن وصلت المنزل.

الفصل العاشر

"هيِّئت لي جنَّة في خيالاتي المريضة، فظنَنْت أنَّني حوريَّة، وأنَّك ستعاملني بمبدأ: أن رفقًا بالقوارير! فكانت توهُّماتي هباءً منثورًا!".

عندما تستشعر أنَّ أحدًا ما يُنازعك في شيْء تعشقه حدَّ الموت، فمِنَ البديهي أن تصاب بداء العداوة تجاه هذا الشخص، بيْد أنَّ ذكرى لم تكن لتُنازع ضحى في فارس، لكن غيرة المرأة على رجل تحبُّه

تجعلها تكره كلَّ امرأة جميلة، تكون لها صِلة من قريب أو بعيد بهذا الشخص..

كانت ضحى تذرع غرفتها ذهابًا وإيابًا، تتأفَّف كما لو أنَّ هناك شيئًا مزعجًا يتسلَّل إلى عينيها من آنٍ لآخرَ، أخذت تحدِّث نفسها كالذي أُصيب بالحمَّى، وما كانت تلك الحمَّى إلَّا ذكرى: "إنَّها ليست جميلة إلى الحدِّ الذي يجعل فارس ينبهر بها، ومَن قال إنَّها جميلة منَ الأساس! أيُعقل أن يكون هناك شيء ما بينها وبين فارس؟!"..

في ظلِّ تلك الوساوس التي تمَكَّنت منها طرقت أمُّها باب الغرفة، لكنَّ ضحى لم تشعر بطرقات الباب وهي مُستغرقة في تلك الأفكار، بدَتْ والدة ضحى كالذي أصابه الفزع، فكانت مَذهولة من حالة ضحى تلك، فقالت تُهوِّن عنِ ابنتها:

- ماذا حلَّ بكِ يا ضحى، تتحَدَّثين مع نفسك؟!

- الأمر مُزعج للغاية، بالي مُنشغل تمامًا مُذْ رأيت تلك الفتاة التي تدعى: ذكرى!

- لماذا تشغلين بالك بها؟!

- أخشى أن تكون تلك هي التي سرقت فارس منِّي، وأعمَتْ بصره عنِّي.

- لقد أوضحت خالتك الأمر، وأنَّه لا عَلاقة بينها وبين فارس كما تظنِّين.

- هذا الذي يبدو لكم.

- وما الذي يخفى علينا؟

- أنَّهما يُضمِران شيئًا ما، والأيَّام بيننا، وسترين ذلك بنفسك.

- الأمر لا يحتاج إلى كلِّ هذا الضغط الذي تُقحمين نفسك فيه!

- ألم تُلاحظي ارتباكها عندما رأت فارس؟ ما الذي جعلها ترتبك إلى هذا الحدِّ؟!

- أي فتاة في محلِّها حتمًا سترتبك، فعندما تذهبين لزيارة امرأة ويفتح لكِ الباب رجل، لهو أمر يدعو للخجل.

- أتظنِّينها منَ النوع الذي يتمَتَّع بالخجل! إنَّها تمَثِّل ذلك أمامهم..

- يا ابنتي! لا تجعلي من غيرتك على فارس مِعوَلًا يخوض في أعراض الناس.

- إنَّها الحقيقة يا أمِّي.

- لا إله إلا الله!

- محمَّد رسول الله.. أنتِ لن تقتنعي بكلامي هذا إلَّا عندما يطلبها فارس للزواج.

- كلُّ شيء نصيب يا ابنتي! حتَّى نحن ما أتينا إلى هذه الحياة إلَّا لنتجرَّع ما كان لنا من نصيب.

- إيَّاكِ أن تقولي ذلك مُجدَّدًا، ففارس لي وأنا له! القضيَّة محسومة منذ الصِّغَر.

- فلنفرض يا صغيرتي أنَّه لا يريدك!
- أتُفَوِّلين في وجهي يا أمِّي!
- لم أقصد ذلك..
- بل تقصدين! فكما لو أنَّكِ تتعَمَّدين إزعاجي.
- الأمور لا تؤخَذ هكذا، فالله قد عرفناه بالعقل.
- والعقل يقول مثلما أقول..

لم تكن غيرة ضحى لتصيبها بالعمى فقط، بل أثارت بداخلها عنصرًا كان دفينًا، جاء الوقت المناسب ليتفاعل معها لتقتني ما تريد؛ إنَّه عنصر الشر، فالله جلَّ جلاله من فوق سبع سماوات وصف كيد النساء بالعظم، حيث قال: (إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ) [يوسف: ٢٨]، وإنَّ قانونًا من قوانين المرأة -تلك القوانين التي لا تتزحزح عنها قيد أُنْمُلَة- ألا وهو الكبرياء، فلا يتسنَّى لامرأة أن تسمح لأخرى أن تُشاطِرها في رجل أرادته هي لنفسها، فراودته عن نفسه سنوات شتَّى فيعرض عنها وينقلب إلى أخرى غيرها، في تلك الحالة ستحرق العالم أجمع، بيْد أ نَّها لا تسمح لقانون الأنَفَة هذا أن يُبادَ...

- مسكينة هي ذكرى.
- لماذا يا صغيرتي؟
- لأنَّها تتحَدَّاني في رجل أحبُّه!
- ضحى؟
- لا تُصابي بالهَلَع هكذا، فأنا لم أفعل شيئًا بعدُ يا أمِّي!

- إذًا تنوين الشرَّ! بالله أقصِري يا ابنتي، فالذي خلق فارس خلق كثيرين مثله.
- هو فارس واحد لا غير!
- لا تستبقي الأحداث، واتركي الأمور تأخذ مجراها الطبيعيَّ.
- الطبيعي وغير الطبيعيِّ، لا تقلقي!
- هداكِ الله!

خرجت والدة ضحى وهي تتأفَّف غيظًا، ولربَّما وجعًا من تلك الحالة التي تملَّكت صغيرتها، وتمْتَمَت في سرِّها إلى الله أن يهدي صغيرتها.. في تلك الأثناء كان أحمد ابنها قد عاد من عمله، فحكت له أمُّه ما كان من أمر ضحى، فطمأنها على أخته، وهرع إلى مضجعه ليرتاح قليلًا.

﴿ الفصل الحادي عشر ﴾

"حينما تُطعَن من أقرب الناس إليك، فلا تبتئس بما فعلوا؛ لأنَّهم لم يتخَلَّصوا من بشرِيَّتهم بعد".

كلُّ واحد سيُسقى من نفس الكأس التي سقى بها غيره، وكأس الدَّيْن مملوءة لا تَنضُب؛ فكما عقارب الأيام لا تتوَقَّف، هكذا كأس الدَّيْن قائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

بينما آدم قد خرج للقاء فريسة جديدة من فرائسه التي تعوَّد أن يُوقعها في شِباكه، وقد تهَيَّأ كعادته لهذا اللِّقاء، فكان مُهنْدَم الزِّيّ،

يرتدي بنطالًا أسود كسواد أفعاله تمامًا، وقميصًا أبيض كنقاء أسنانه التي تُسفِر عن طاقم مُنتظِم الهيئة ناصع البياض، وقد أرسل شعره الفاحم السواد شديد النعومة إلى الخلف، وقد شذَّب شاربه ولحيته بشكل أنيق، ووضع عطرًا مميَّزًا كهيئته تمامًا..

وصل المكان المتَّفق عليه، وكان كافيتريا على النيل، أنزل زجاج السيَّارة ليتفَقَّد المكان أوَّلًا، ثمَّ بعد دقائق نزل من سيَّارته التي تنتمي إلى فصيلة الـ "مرسيدس بنز"، سار نحو المكان بخطًى ثابتة وشموخ بيِّنٍ، اختار أهدأ مكان في الكافيتريا، وجلس ينتظر الفتاة التي عقد معها الموعد.. بعد مرور حوالي عشر دقائق من جلسته تلك، حدث أمر لم يكن على البال ولا في الحُسْبان، نزل هذا الأمر منه منزلة الصاعِقة، فسَرَت بجسده سريان التيَّار الكَهرَبائي الذي سرعان ما استقرَّ برأسه فأصابه بغَلَيان في المخِّ، فثارت نفسه على ما رأَتْ، فهم أن يتحرَّك من مكانه، لكنَّه بعد لأيٍ شديد قرَّر أن يُتابِع المشهد من بعيد..

التَقطَتْ عدسات عينيه أختَه ريهام قادمةً من بعيد تتأبَّط ذراع رجل، كانت تلك هي الصدمة الأولى في ذلك الموقف، أمَّا الأدهى من ذلك أنَّه ما كان هذا الرجل الذي جاءت معه ريهام غير ياسر صديق آدم! فأخذ آدم نفسًا عميقًا، ثمَّ ازدَرَدَ ريقَه، يبدو أنَّ الليل أرسل أخضاله باكرًا، فكانت الظُّلمة تعبث بنفس آدم فيثور، يتخبَّط في تلك الظُّلمة، يُرسِل سِبابه ولِعانه إلى الزمن الذي أوصله لتلك

الحال.. يدَخِّن سيجارة، ثمَّ أخرى، لا يدري إن كان يُشعل حريقه الداخلي أكثر أم يُهدِّئه..

يتحدَّث إلى نفسه قائلًا: "يا الله.. لم تبتليني في أختي وصديقي؟! الأمر مُشين حدَّ الموت، لم يكن يخطر ببالي أن تأتيني الطعنة من أعزِّ أصدقائي، لماذا فعلتما هذا بي..؟!".

أعلم يا الله أنَّ ضحاياي كُثْر، لكن ما كنت مهتمًّا إن كان الزمن سيقتصُّ منِّي أو لا، ويا ليته لم يفعل؛ لكنَّه فعل، فالدهر دائرة لا بدَّ أن يكون المرء نقطة على أقطارها كيما تكتمل.. ماذا أنا فاعل الآن؟! أشتَبِك مع ياسر؟ أنتزع أختي من شعرها؟ أنسحب في صمت الآن، وأُرجئ الحديث إلى أن تعود تلك البلْهَاء إلى المنزل..؟

انسَلَّ آدم من هذا المكان في هدوءٍ تامٍّ، ومشى يتخبَّط كمن يطأُ صريمًا، مُشتَّت الفكر، مُنكسِر النفس، يغطُّ في ماضيه الحالِك الفعال، يتذكَّر هذه وتلك، يتعجَّب من كونه أوقع هذا العدد منَ الفتيات، يستنكِر ما فعله من تحطيم قلوب العذارى، يسأل كيف كانت تسمح له نفسه أن يُقهْقِه كالأبْلَه بعد انتهاك كلِّ فتاة! إنَّها الذاكِرة تقوم بدورها الآن، تُعيد إليه تلك اللحظات بحذافيرها، يحدِّث نفسه قائلًا:

"ما حدث لي يومًا أن حدَّثت نفسي بحديث الخشية منَ الله! يبدو أنَّني كنت أتناسى أنَّ لدي أخوات ينتمين إلى جنس حوَّاء! هذا

الجنس الذي طالما استدرَجْتُه ظنًّا منِّي أنَّهنَّ يستحققن هذا وأكثر، أعلم يا الله أنَّ ما من فتاة تعرَّفت عليها كان ينقصها تربية ولا أخلاق؛ بل كنت أنا الشيطان المبَدِّد لتلك الأخلاق..

يتذكَّر بوضوح تامٍّ ذكرى دونًا عن كلِّ الفتيات اللَّاتي أوقعهنَّ في شِباكه، لكم قالت لي بأنَّ لدي أخوات، وسيقع القِصاص عليهنَّ، ولكم قلت لها بأنَّها عاهِرة لا يُمكن أن تُقارِن أخواتي بنفسها، بيْد أنَّها -والله- ما أنقذها الله إلَّا أنَّها متحَصِّنة بحصن منَ الأخلاق مَنيع، مُحال أن يُهدَم!

يتذكَّر تلك الجملة -بوضوح- التي ألقت بها ذكرى من شُعْبة الباب:

" أردْتُ منك أن تُميط لثام قلبي فيتعَرَّى بحبِّك، ولكنَّك أمطْتَ لثام خُلُقي فتعَرَّيت بذنبي" .

يرَدِّد قائلًا:

- بل تعرَّى يا ذكرى قلبي بحبِّك، لكن لم يُمَطْ لثام خلُقك، بل حفظك الله به، أتمنَّى أن لو أراك يومًا لأطلب منك أن تُسامحيني على ما قدَّمت! لو تعلمين يا ذكرى ما حدث لي نتيجة أفعالي لأشفَقْتِ عليَّ، فالأيَّام دُوَل، وها هي قد سقطت دولتي..

ليُسامِحْني الله..!

استفاق بعد استغراق طال في الماضي على صوت هاتِفه يُناديه، أخرجه ثمَّ نظر فيه، إنَّها الفتاة التي تنتظره الآن! تُذَكِّره بموعدهما، لكنَّه أخرج شريحته وألقى بها هناك في عرض النَّهر لتقذفها تلك الأمواج المتلاطِمة حيث يشاء القدر.

ثمَّ قال مُحرِّرًا تلك الفتاة التي هي آخر ضحاياه:

"انطلِق أيُّها العصفور، فما عُدْت أمتلك أقفاصًا، فلتحمد الله أن كونه أصهر سياجي الحديديَّة، فلن أقصَّ ريشك الجميل هذا بمخالبي القذِرة تلك..".

لم تكن مصيبة آدم في ذلك المشهد الذي رآه منذ سُوَيْعات مضت بقدر ما كانت مصيبته وعزاؤه في نفسه، فما كان هذا الموقف إلَّا زِرَّ تنبيه لما اقترَفه من ماضٍ بغيض، فما حدث له ما كان إلَّا نذيرًا.

الموت الذي يأتي فجأة فيَقْتات على أحد المقرَّبين، ومِن ثمَّ نُدرِك أنَّ الموت قريب جدًّا.

الفصل الثاني عشر

"لست منهم ولا هم منك، هم فقط عابِرون على طُرُقاتِ قلوبنا، يُهدْهِدون روحك الطيّبة بكلماتهمُ المهندَمَة، ريْثَما يرحلون ككُلِّ شيْء".

رائعة هي تلك الأمور التي نترَقَّب قُدومها، كترَقُّب أوَّل يوم رمضان، هلال العيد، كترَقُّب يوم النزهة.. الِانتظار في تلك الأمور مُمِلٌّ حدَّ القتل، يعبث بأنفاسِك، كمن يُساومك عن نفسك، ولأنَّ تلك الأمور التي تنتظرها أجمل من أن يُعكِّر صفوها انتظار ماسخ نتغاضى عمَّا أصاب النفس به من ضجر..

كنت أترَقَّب حلول يوم الِاثنين على أحرَّ من الجمْرِ، ما لي قدِ اشتقت السيدة أمَّ فارس إلى هذا الحدِّ..!

يحدث أن تتعَلَّق بأحد ما دون سابق إنذار، رائعون أولئك الذين يتشَبَّثون بروحك من أوَّل لقاء، وها أنا تعَلَّقت بأمِّ فارس تعَلُّق طفلة بأمِّها، أصبح جلُّ حديثي مع أبي عن تلك المرأة، دومًا ما تحضرني صورتها عندما كنَّا في الحافِلة، إذ كانت تُربِّت على كتفي كما تفعل كلُّ أمٍّ مع أبنائها..

دخل أبي فجأة على حين غفلة منِّي، وقد سرَّه ما رأى منِّي؛ إذ أبدو بفعلتي تلك كالأطفال تمامًا، فتحَدَّث قائلًا:

- ما لى أراكِ تصَنَّمتي أمام ساعة الحائط هكذا؟
- الوقت بطيء جدًّا يا أبي!
- ولم تستعجلين الوقت إلى هذا الحدِّ؟!
- لزيارة السيِّدة أمِّ فارس.
- كلُّها دقائق ويُرفع الآذان لصلاة العصر، وستذهبين!

- سأذهب لأتوَضَّأ.

هذا أفضل حلٍّ.

خرجتُ وخرج أبي، وكلانا يبتسم، ها هو قد أُذِّن لصلاة العصر، وها أنا قد أدَّيْت صلاتي، وأنا في أهْبَة الِاستعداد للذهاب، كنت أخترق الطريق بسرعة البرق كما يقولون، دقائق معدودة وما وجدتني إلَّا وأنا ماثِلة أمام شقَّتها، ما إن لامست أطراف أصابعي الجرس حتَّى تذَكَّرت ذلك الشابَّ الذي فتح لي في المرَّة الماضية، فتراجعت كلِّيَّة عنِ الضغط على الجَرَس، لكن شاء القدر أن يفتح ذاك الشابُّ الباب في الوقت الذي قرَّرْت فيه أنا التراجُع، تفاجأ كلٌّ منَّا بالآخر، فوقفت أنا مَبْهوتةً للحظات، بينما هو يبتسم، كان يتفَحَّصني في هذه المرَّة أيَّما تفَحُّص، لست أدري ما السبَب! غمَز لي غمزة جعلتني أقرأ الأرض من فرط نظري للأسفل، تابع ابتسامه وهو يقول:

- ذكرى.. أليس كذلك؟
- بلى.
- أمِّي تنتظركِ في الداخل.
- شكرًا لك.

أخذ يُنادي على أمِّه، ما إن جاءت ذهب هو.. جاءت أمُّ فارس والسعادة تغمُرُها، لم أكن أعلم أنَّ رؤيتي ستسرُّها إلى هذا الحدِّ، كما سُرِرْت أنا -أيضًا- برؤيتها، وربَّما أكثر، قالت بعد عناقٍ طال:

- تفَضَّلي بالدخول يا عزيزتي.
- شكرًا لكِ يا خالتي.
- ماذا قلنا؟
- أعتذِر يا أمّي!
- سأذهب لأعدَّ لنا شيئًا نحتسيه أثناء جِلسَتِنا.

خرجت، ثمَّ التفتَتْ إلي فجأةً وقالت:

- ولِمَ لا تأتين معي؟ إنَّه منزلكِ أيضًا..

احمَرَّ وجهي خَجَلًا من ذوْق تلك المرأة وكرمها غير العاديَّين، وانصرفت معها في صمت تامٍّ، قادتني حيث المطبخ، طلبت منها أن تجلس ريْثَما أعدُّ أنا فنجالَي قهوة، أوْمَأتْ إلي أن إليكِ المطبخ، فلتفعلي ما تشائين، وجلست على بعد متر منِّي تُراقِبني، تتأمَّلني تأمُّل الأمِّ لِابنتها التِّي صارت عَروسًا فجأة..

أعدَدْت القهوة وخرجنا معًا، استأنَفَتْ هي الحديث مُجدَّدًا:

- كنت أوَدُّ أن أسألكِ سؤالًا يا عزيزتي.
- تفَضَّلي يا أمِّي.
- أنا في مقام أمِّكِ، لا تتحسَّسين من أسئلتي تلك.
- بالطبع.
- حسنًا، ألم ترتبطي بعدُ يا ذكرى يا غاليتي؟

يا الله! لقد وقع سؤالها هذا مِنّي موقع الصاعِقة على الغافل، تذَكَّرت ذاك اليوم المشؤوم بكلِّ حذافِيره، كانت صورة آدم مُنتصِبةً أمام عيني انتِصاب المواقف السيِّئة التي لا نوَدُّ أن نتذَكَّرها بتاتًا، بيْدَ أنَّها تأبى إلَّا أن تبقى لتُثير أشجاننا! تلألأت دمعة بعيني خشيت أن تلاحِظَها، فمسحتها سريعًا، وبعد صمت ملحوظ دام لدقائق خرج صوتي أخيرًا..

- لا يا أمِّي، لم أرتبط..

ابتسمت هي ابتسامةً طالت، لست أعلم ما مَكنونها حتَّى الآن! ثم تنَفَّست بأريحيَّةٍ شديدة كمنِ اطمئنَّ على مستقبل طفلِهِ..

- جميل، سأفتح معكِ موضوع مهمٌّ للغاية بعد أن تنتهي من تسميع وِرْدكِ.

- كلِّي آذان مُصغِيَة.

انتهيت من تسميع وِرْدي لها، وكانت في أبهى انتِشائها، تفاجأَتْ بأنَّني أتمَتَّع بذاكِرةٍ شديدة؛ إذ لم يسقط منِّي حرف واحد! وما فاجأَها أكثر هو تلاوَتي، إذ أمتلك صوتًا شَجِيًّا.. ابتهَجْتُ جدًّا من ثنائها عليَّ، مسحَتْ على رأسي وهي تقول:

- ها.. أنُكمِل الموضوع الذي لم يُفتَح منَ الأصل؟

- ها ها ها.. نُكمِل، أقصِد نفتحُه.

- أصغِ إلي جيِّدًا يا ذكرى..

- لعلَّه خير يا أمِّي!

- خير يا ابنتي، أتذكرين ذلك الشابَّ الذي فتح لكِ الباب؟

- إي أذكره..

- أتعلمين مَن يكون؟

- لا، لكنَّ المنطق يقول أنَّه فارس ابن حضرتك..

- فتح الله عليك، هو فارس بالفعل.. أظنُّك قدِ استغرَبْتِ نظراته إليكِ اليوم!

- جدًّا..

- على كلٍّ يا ابنتي، أنتِ ابنتي وهو ابني، ولن أجد في الدنيا عروسًا مناسبةً له أكثر منكِ.. ما رأيكِ؟

فاجأَتْني بطلبها هذا، أصابني الصمت هُنَيْهة، كانت ستطول لتكون بُرْهَة منَ الزمن لولا أ نَّها كرَّرَت سؤالها..

- إنَّه لنِعْم الشباب إي والله! يكفي أنَّه ابنك، وأنتِ خير أمٍّ في الدنيا كلِّها، لكن.. هناك أمران لا بُدَّ من أن يتَّضِحا أوَّلًا..

- ما هما؟

- أوَّلهما: ضحى، أقصِد قرأت من عينيها ما تُكِنُّه لفارس!

- دعْكِ منها، هي لا تُناسِب فارس بأي حالٍ منَ الأحوال، وهو لا يُكِنُّ لها سِوى شعور الأخ تجاه أخته.

- حسنًا.. والأخير: هو أنَّني أوَدُّ أن أجلس مع فارس بمُفرَدِنا لدقائق مَعدودة، هناك أمر ما أوَدُّ أن أُناقِشَه معه..

- وهو كذلك، هو على وَشْك أن يصِلَ، لكِ ما شئتِ.

قمت، واحتضنتها طويلًا، ولسان حالي يقول:

- شكرًا لك على كلِّ شيء، يا ملاكًا أرسله الله إلي في أحْلَكِ الظروف، دُمتِ لي نِعمةً.

سمعت صوت مفاتيح تدِبُّ في أحشاء الباب، لا بُدَّ أنَّه فارس، سَرتِ ارتِجافَة في جميع أجزاء جسدي، نتيجة لِلارتِباك الذي أصابني، كان لا بُدَّ من أن أعدَّ كلامي أوَّلًا، وأرَتِّبه في ذهني قبل العرض، لكن لم يُمهِلني فارس لأفعل ذلك، إذ عاد سريعًا، أتمَتَّع الآن بمشاعر مُختلطة: الخَجَل، الِارتباك، الخوف... والسعادة!

تنَحْنَح فارس مُعلنًا عن قُدومِه، فغمَزت لي أمُّه، ثمَّ خرجت لتُخبِره بأن عليه أن يجلس معي لحاجة ما في داخلي.. دقيقة بالضبط وجاءتني طرَقات الباب، فقلت بخَجَل بيِّنٍ:

- تفَضَّل بالدخول.

- شكرًا لكِ يا ذكرى..

لست أدري إن كان إخباري إيَّاه بما حدث معي منذ شهر هو نوع منَ الجنون والتهَوُّر، أم أنَّه نوع منَ الصدق والأمانة! على كلٍّ، فإنَّني

عزَمْت على أن أُخبِره بكلِّ شيْء، والخيار أوَّلًا وأخيرًا له، فأنا من داخلي مُقتَنِعة تمامًا بما سأفعله لسببَيْن:

أوَّلهما: أنَّني ألتَمِس في فارس الشابَّ الوَقور الذي يُحافِظ على سرِّي هذا أيًّا كان خياره.

آخرهما: أنَّني أرَدْت أن أبدأ حياة جديدة نقِيَّة، بلا ماضٍ أسود يُعكِّر صفوها، ولا نفاق يُشَتِّت شملها.

- ما لي أراكِ آثرتِ الصمت يا ذكرى!
- لا، لم أوثِرْه! بيْدَ أنَّني لا أعرِف مِنْ أين أبدأ كلامي.
- حيثُما شئتِ ابدئي..
- أعلم أنَّ ما سأقوله الآن سيُفاجئك كثيرًا، لكن.. عِدْني بأن تحفظ سِرِّي هذا أيًّا كان ردُّ فِعْلك..
- أعِدُكِ بذلك..

لست أذكر تحديدًا مِنْ أين بدأت الموضوع، ولا كيف، كلُّ ما أذكره أن كانت شفتاي ترْتَجِفانِ مع كلِّ كلمة تفَوَّهْت بها، وأدمُعي كانت تجري حيثُما كانت تجري الكلمات، توَقَّفت هناك حيث لقائي بأمِّه، وهنا تحَشْرَج صوتي تمامًا، أبى كلُّ شيْء إلَّا الاِنحِسَار بين أوْتاري الصوتيَّة!

وأخيرًا رفعت وجهي، لأجِد فارس يبكي كما أبكي أنا تمامًا، ما هذا الذي يحدث؟!

مِنْ أي فصيلة منَ البشر أنت يا رجل؟! قلت:

- الآن علي أن أذهب، وأيًّا كان اختيارك فرقم هاتفي مع أمّي السيِّدة أمِّ فارس، لكن صدقًا لا وجه للمُقارنة بين الخيارين، ففي حالتي تلك المقارنة غير عادِلَة، والأفضل أن تضرب بالموافقة عرض الحائط..

- لا أظنُّ! انتظري منّي اتّصالًا في الغَدِ إن شاء الله.

- إن شاء الله.

انطلقت وقلبي أكثر انشِراحًا بما فعلت، فأن تُصابَ بعَتَهِ الصدق خير لك من أن تُصابَ برَزانَةِ النِّفاق، فإن كان المنافِق في الآخِرة في الدَّرْك الأسفل منَ النار، فهو في الدنيا في الدَّرْك الأسفل منَ السعادة، وأي سعادة يبتغي المرء طالما أنَّه بدَّدَ الذي كان بينه وبين الله موصولًا..!

الفصل الثالث عشر

"مُبارَكون أولئك الذين لا يعلمون منَ الحياة شيئًا؛ بيْدَ أنَّهم يبحثون فيها عمَّا يسُدُّ رمَقَ الجوع، وشيْئًا ما يُوارِي سَوءاتهم!".

بينما أنا غارِقة في لُججٍ منَ الأفكار، إذ به يُهاتفني قائلًا: مُوافِق يا ذكرى.. مُوافِق بمَحْض إرادتي، وبكامِل قوَاي العاطفيَّة أوَّلًا، ثمَّ العقليَّة أخيرًا.

- أرجوك، لا تتسَرَّع في الأمر يا فارس، فالأمر ليس بهَيِّن، وما تختاره بإرادتك الآن قد تندم عليه لاحقًا، أرجوك ترَيَّث قبل أن تُصدِر قرارك.

- ذكرى.. صدِّقيني! إنَّك والله لتلك الفتاة التي آمل أن تكون زوجي، فأنا أرى فيك ما لا ترينه أنتِ في نفسك، فأنت فتاة طاهِرة نقِيَّة استَسْلَمَتْ لهواها يومًا، لكنَّها لن تعود لمثل ذلك أبدًا، واثِق من ذلك.. صدِّقيني!

- شكرًا لك على كلِّ شيْء يا فارس، أنا مُوافِقة..

بكيت فرحًا، بكيت حزنًا، بكيت ندمًا، بكيت قهرًا، المهِمُّ أنَّني بكيت، بكيت كثيرًا، بكيت شكرًا وامتِنانًا لهذا الرجل الذي قلَّ نظيره في زمانِنا، أيُعقَل أن يكون هذا الرجل يعيش معنا على كوكب الأرض؟! لا أظنُّ ذلك! لكن على كلٍّ، يُوجد فارس.. وهذا يكفي.

في تلك الأثناء كنت أغطُّ في الماضي بذاكِرة مَتينَة، ودِدْت لو أنَّني كنت أمتلِك يدَيْن من فُولَاذ أُحطِّم بهما ذاك الرأس لأرتاح من صخَب الذاكِرة وما يُصاحِبها من أنِينٍ يُحدِث في القلب ثُقبًا تلْوَ الآخر.. لم يدُمِ الأمر طويلًا؛ إذِ انتَشَلني أبي من ذاكرتي وصخَبها المزعِج..

- ماذا تفعل جميلتي الآن؟

- لا شيْء أبي، تفَضَّل بالجلوس..

همَمْت أن أُخبِره بطِلْبَة فارس لِي، لكن تذَكَّرت أنَّ هذه مُهِمَّة أمِّ فارس، فنَحَّيْت الموضوع جانبًا..

- أمُرْتَبِطة بأمر ما غدًا؟

- لا، لماذا؟

- سنذهب لزيارة عمّك إبراهيم وأبنائه في قرية "نِكْلا العِنَب" هناك حيث رُبيت أنا، آهٍ يا ذكرى! كانت أيَّامها أيَّام خير، أهلها طيّبون إلى حدٍّ يجعلك تتعَجَّبين، ما أدركتِ أنتِ منها إلَّا زيارات مَعدودة أيَّام كانت جدَّتُك على قيْد الحياة..

- عندك حقٌّ يا أبي، فنحن بحاجة لمثل هذه الزيارة، وأنا قدِ اشتقت كثيرًا لأبناء عُمومَتي.

- إذَنْ فلتُعِدّي منَ الآن ما نحتاج إليه في سَفْرَتِنا تلك، فقد نمْكُث هناك أسبوعًا أو يقِلُّ قليلًا.

- حسنًا يا أبي، سأفعل..

لم أتمَكَّن منَ النوم في تلك الليلة المُمْتَزِجة بألوانٍ منَ الأحاسيس المختلِطة، فهناك حزن دفين مُرْتَبِط بذاكِرة الماضي دائمًا ما يُقِضُّ مضْجَعي، وأمَّا الشعور الآخر فهو سعادة غامِرة بما قدَّمه لي فارس دعمًا منه على محْوِ هذا الماضي وطيّه مع صفحات النسيان، ثمَّ إنَّه هناك مستقبل ينتظرني أنا وفارس، سنُقيم جدارَنا معًا ونتآزَرُ حتَّى

الجنَّة -آمُلُ ذلك-، وسنُشْعِل بتلك العلاقة ثِقابًا يُبِيد تلك الذكرى السيِّئة أبدًا.

لم أُصدِّق أن قد أُذِّن لصلاة الفجر وأنا أجلس القُرْفُصاء تمامًا كما تركني أبي! على كلٍّ.. توَضَّأتُ، واتخَذْت لنفسي مِحرابًا جديدًا هذه المرَّة، كما لو أنَّني بذلك أُعلِن بداية عهد جديد مع الله سبحانه وتعالى..

لم تكن نسائم الصباح تُشبِه مثيلاتها من تلك التي مرَّت على مدار الأيَّام؛ بل كانت ندِيَّة تحلُّ منَ القلب محلَّ قطرات المطر بأرض جدْبَاء تشَقَّقت نتيجة ذلك الظمأ الذي أصابها، فها هي تُزهِر من جديدٍ بعدما أصابها المطر، هكذا حال قلبي في تلك الأثناء، أيُعقَل أن يكون فارس قد حلَّ بفيافي قلبي محلَّ المطر!

سمِعتُ طرَقات أبي على الباب، طرَقات خفيفة كخِفَّة رُوحِه تمامًا، قلت:

- تفَضَّل يا أبي.

- هل أنتِ مُستَعِدَّة يا بنَيَّتي؟ علينا أن نُغادِر الآن حتَّى لا يفوتنا القطار..

- أجل.. مُستَعِدَّة يا أبي..

طلبنا من مسؤول التذاكِر تذكرتَيْن لقطار الإسكندريَّة، ركِبْنا، تحَرَّك القطار، توَكَّلْنا على الله، مضى حوالي ثلاث ساعات، كنت

أتأمَّل فيهم وجوه الركَّاب، هل ما يبدو لي على تلك الوجوه يُعبِّر عن مكنوناتها؟ أتلك الإبتسامات التي يوَزِّعها الناس بالمجَّانِ تُعَبِّر عن سعادتهم؟ أم أنَّهم أكثر الناس احتِياجًا إليها؟ أذاك العُبوس جِبِلَّة جُبِل عليها هؤلاء القوم، أم أنَّها رياح الحياة، وما تحمله في طيَّاتها من شقاء يُدعى البحث عن لقمة العيش؟

ماذا لو أنَّ للقلوب ألسُن تبوح كلَّما طفَح الكيل؟ إذَنْ لن يصمت قلب امرئ إلى أن يلقى الباري سبحانه.. برأيي الصمت نعمة تستحِقُّ الشكر كنعمة النسيان تمامًا.

كان قد ركب بجوارنا طفل في الثالثة عشر من عمره، مُهَلْهَل الثياب، مُشعَّث الشعر، أغبر الوجه، ابتسم لي بمُجَرَّد أنِ اتخذت لي مقعدًا، كنت أجلس أمامه وجهًا لوجه، سلَبَتْه الحياة كلَّ شيْء، بيْدَ أنَّها لم تقْوَ على أن تسلُبَه ابتسامته ونقاء قلبه، كان ينظر إلي من آنٍ لآخرَ، وبعدما أمسكت به مُتلَبِّسًا وهو ينظر إلي بادر هو بالحديث:

- هذا الرجل والدكِ؟
- أجل..
- لا يوجَد عندي أب!

قلت وقد تأسَّيْت لحاله:

- رحِمه الله!
- ستنزلين في الإسكندريَّة؟
- أجل..

- وأنا أيضًا..
- تصل بخير إن شاء الله.
- أنا ذاهب للبحث عن مكان أجِد لي فيه لُقمَة عيْش.
- ستجِد إن شاء الله.

كنت قد أخرجت طعامًا منَ الحقيبة لنتناوله، قدَّمْتُه له، أبى أن يأخذَه كلَّه، قال:

- أعطيني شيئًا منه فقط..
- تفَضَّل.

أكل بنَهَمٍ كما لو أنَّه لم يأكل منذ سنوات، أيُعقَل أن يكون قد غفا طيلة عمره كأصحاب الكهف، ثمَّ ها هو قدِ استيقظ جائعًا، فخرج يترَقَّب يبحث في الحياة عمَّا يسُدُّ به رمَق الجوع؟!

كلَّما مرَرْنا بمنطقة ما سألت أبي عنها، ما لي أرى الذاكِرة قد محَت محافظة البحيرة من رأسي دون أن تُبقي على أي أثر منها، وبالأخصِّ "نِكْلا العِنَب"! ربَّما لأنّي لم أُولَد بها، لكن.. أبي نشأ هناك، وعلى أرضها شبَّ، وأخي قد وُلِد هناك، ثمَّ بعدها انتقل أبي إلى القاهِرة، ما جئتها إلَّا زيارات تُعَدُّ على أصابِع اليد، لكن على كلٍّ أنا أُحبُّها جدًّا، بالفعل أنا سعيدة بزيارتي تلك..

نزلنا منَ الحافِلة التي انتقلنا فيها إلى قرية أبي، وواصلنا المشي على أقدامنا حوالي عشرين مترًا، ثمَّ توَقَّفنا أمام منزل مُتوَاضِع،

طرق أبي الباب، لتخرج سيِّدة منه ترتدي عباءة، وقد شدَّت على رأسها بحجاب صغير ربطَتْه منَ الخلف، بعد تأمُّل في وجه أبي دام لدقائق، قالت والبهجة قد ترَبَّعت على وجْهِها البسيط كبساطتها تمامًا:

- الحاجّ ياسين! تعالَ يا إبراهيم.. إنَّه أبو محمَّد..

في تلك الأثناء سألت: لماذا لم نعُدْ إلى مَنشئنا الأوَّل بعدما فقدنا أمِّي وأخي، كما فعلتِ السيِّدة أمُّ فارس بعدما فقدت زوجها؟! أخشيت على ابنها من وَحْشة الوحدة؟!

خرج رجل يرتدي جلبابًا، قد أعمل الزمن يده في وجهه، فتبَدَّتْ آثاره على هيئة تجاعِيدَ، وقدِ اشتعل شعره شيبًا، فازداد وَقارًا، قال وهو يتفَحَّص أبي كمن وجد بُغيَتَه بعد غياب طال:

- يا مرحبًا بالغالي، كيف حالكَ يا غالي؟ كيف حالكِ يا غالية يا ابنة الغالي؟

تفضلَّا بالدخول، هل سنظَلُّ على الباب هكذا طويلًا؟!

ما إن ولجنا من الباب حتَّى ألقى كلٌّ من أبي وعمِّي بجسديهما النحيلين على بعضهما، ثمَّ اشتدَّا معًا كأغصان أشجار تشابكت، ألم أقل إنَّ للفروع أصلًا حتمًا ستلتقي عنده؟!

كانت تلك المرأة التي فتحت لنا الباب قد عانقتني، وأخذت تضع على خدِّي قبلات حارَّة، تختلف تمامًا عن تلك التي اعتدناها في

القاهرة، فقبلات القاهرة تنمُّ عن مُيُوعة، يطلقون عليها: الإتكيت! بينما هذه تنمُّ عن كرم المشاعر، ككرم أهلها تمامًا، انتهت مِنّي المرأة ليستلمني عمّي، فعل بالضبط ما فعلته زوجته! ثمَّ نادى:

- يا محمود.. أحمد.. ندى.. يا يمنى.. تعالوا يا أولاد سلِّموا على عمّكم وابنته ذكرى..

خرجوا من غرفاتهم في مشيةٍ عسكريَّة امتثالًا لأوامر والدهم "العمّ إبراهيم"، ثمَّ توَقَّفوا صفًّا واحدًا ليأخذ كلُّ واحد منهم دوره، سلَّموا ثمَّ جلسوا في هدوءٍ تامٍّ، الكبير كالصغير تمامًا..

يقطع أبي الصمت قائلًا:

- كيف حالكَ يا إبراهيم يا أخي؟
- بخير والحمد لله..
- وأنتم كيف حالكم يا أولاد؟ يردُّون في صوتٍ واحد مثل الجَوْقَة:
- بخير يا عمّي، الحمد لله أن اطمأنَنَّا عليكم.

في اليوم التالي أخذَنا عمّي في جولة سريعة لحقول القمح وزرائب الماشية، كانت جولة خفيفة ظريفة كظرف أهل البلدة تمامًا، يمرُّ اليوم فيها بسلام، تختلف تمامًا عنِ القاهرة وصخبها الذي لا ينقطع.

في المساء تناولنا وجبة العشاء، وتحلَّقنا جميعًا حول التلفاز، قطع عمِّي متابعة المسلسل بحديثٍ وجَّهَه إلى أبي فاجأ به الجميع، فقال:

- لقد كبر الأولاد يا أبا محمَّد..
- إي والله يا أخي، فلقد ولَّى العمر ولم يعقِّب!
- لذا قلت نفرح بالأولاد ونحن على قيد الحياة..
- خير ما تفعل يا أبا محمود.
- محمود ابني كما تعلم تخرَّج من كلِّيَّة الآثار، وأخيرًا التحق بعمل في شركة سياحيَّة تابعة لمحافظة الإسكندريَّة..
- الحمد لله، يسَّر الله له.
- قلت في نفسي: لن أجد لمحمود عروسًا أجمل ولا أفضل من ذكرى ابنتك!

بهت أبي من وقع الجزء الأخير من العبارة السابقة، كما لو أنه لم يكن يتوقَّعها بتاتًا، بينما أنا صعقت خشية أن يوافق أبي! وأنا قد أبديت لفارس موافقتي بعدما تعرَّيْت أمامه، وكشفت له عن كامل أخطائي، أظنُّني لن أفعلها مع رجل آخر حتَّى مع ابن عمِّي! ماذا لو كان ابن عمِّي مكان فارس؟!

ازدَرَدْت ريقي بطريقةٍ ملحوظة جدًّا، ألقيت نظرة عجلى على محمود الذي يجلس على بُعد مترين منِّي؛ إذ به يجلس وقدِ انفرج

فمه عن آخره، بدا لي أنَّه مُستمتع بطِلْبَة عمّي لي.. انتظرت أن يجيب أبي..

- الرأي رأي الأولاد، الأمر راجع لهما أوَّلًا وأخيرًا..

التفت عمّي إلي وهو يقول:

- ما رأيك يا بُنَيَّتي؟

انقطع صوتي تمامًا، وتلاحقت أنفاسي بسرعة لا تودُّ أن تعقد هدنة معي لبعض الوقت، يبدو أنَّ صوتي انقطع مع انقطاع صوت التلفاز الذي أعلن انضمامه لجلسة الإستماع تلك.. ردَّ عمّي نِيابة عنّي:

- يبدو أنَّ العروس مُحرجة، يُمكننا أن نقول: إنَّ الصمت علامة الرضا! أم أنَّه كلُّ الرضا؟

خشيت أن يطول صمتي، وينتهي أمري في تلك اللحظة، فاستدعيت عقلي، ها هو قد حان دورك، فلتفعل شيئًا، بعد برهة منَ الزمن قدِ انفَكَّت عقدة لساني، ثمَّ أفصَحْت قائلةً:

- سأفَكِّر في الأمر يا عمّي..

- الوقت لكِ يا ابنة أخي..

كان لا بدَّ من حدث تافهٍ يكسر ذلك الملل الذي تسَلَّل إلينا على حين غفلةٍ منَّا، فقامتِ الصغيرة يمنى ابنة الأربع سنوات ومشت باتِّجاه أخيها محمود، فهمست له في أذنه ثمَّ نظرا إلي وابتسما،

فابتسمت لهما بحسن نيَّة، ثمَّ اختفتِ المساكشة الصغيرة، وعادت بعد دقائق معدودة، ثمَّ قَدَّمت لي ورقة قد طويت بطريقة مُحكَمة، ثمَّ قالت:

- افتحي هذه..

فأخذتها وأنا أبتسم، ظنًّا منِّي أنَّ محمود قد كتب فيها شيئًا ما، وما إن بدأت أفرد طياتها حتَّى أحدثت صوتًا مخيفًا تُصاحبه هزَّة شديدة، انتفضت من مكاني وأنا أصرخ، بينما الجميع يغطُّ في نوبةٍ شديدة منَ الضحك لقاء ما رأوا من ردَّة فعلي!

ما كان هذا الِاختراع الذي قدَّمته لي تلك الصغيرة؟

كان عبارة عن نواة، وقد لفَّ عليها قطعة من السلك المعدني لفَّات عدَّة، ثمَّ وُضع داخل هذه الورَيْقة بطريقة لا أقدر أنا على فعلها، ولا يزال أبناء الريف يفاجئوننا بعقولهمُ الجامحة التي تُخرِج لنا اختراعات شتَّى من أبسط الأشياء، قالت يمنى وهي تضحك بقوَّة كأنَّ هناك شخصًا ما يُدَغْدِغها في خَصْرها:

- أفزعَتْكِ؟

- بلى أيَّتها المشاكسة! رغم أنَّني مذ رأيتك أخذت عنك طابع الهدوء والصمت! وها أنتِ تفاجئينني..

أخذتها في حضني، ثمَّ وضعت قبلة على جبهتها، وانتهت ليلتنا على ذلك المشهد الطفولي الكوميديّ.

أشعر أنَّني قبضت فجأة من هذا المكان! فلا روحي ترفرف فرحًا به كيوم جئنا إليه، ولا أنا مرتاحة للحديث مع أحد، أكان محمود هو السبب؟

كان محمود وسيمًا جدًّا، هو شاب في أواخر العشرينات، طويل القامة، نحيل، يمتلك عيني قطٍّ، أقصد عينين خضراوين مثلي تمامًا، يبدو أنَّ هذا اللون منتشر في أغلب أفراد العائلة.

لم تكن تعنيني وسامَتُه، ولن أُشكِّك في تربية عمّي؛ بل لأنّي لم أشعر بتلك الراحة القلبيَّة التي استشعَرْتها تجاه فارس.

وقد أكون خشيت أن يُنقض عهدي الذي قطعته مع فارس بموافقة أبي على ابن عمّي، على كلٍّ لم أشعر بالِارتياح وفقط، لذا طلبت من أبي أن نغادر محافظة البحيرة في اليوم التالي، قد تكون مغادرتنا هذه بلا رجعة إلى هذا المكان مرَّة أخرى..

- الحمد لله عُدْنا بخير.
- حمدًا لله على سلامتك أبي.

الفصل الرابع عشر

"ابحثوا عن منازل أُناس يجعلونكم أكثر نضارَة، ولا تبحثوا عن قصور تُشبِه المدافن تُقْبَرون فيها وأنتم في مُقتبَل العمر".

في صباح يوم الاثنين من شهر يناير عام ٢٠١٦ رنَّ هاتفي، نظرت، إذ بها السيِّدة أمُّ فارس، ضغطت على زرِّ الِاستقبال بسرعة، كنت أنتظر مكالمتها بالفعل:

- السلام عليكِ، ما لي أراكِ يا ذكرى قد وقفت على الجوَّال بأصابعك؟!

- لا.. خشيت عليكِ منَ الِانتظار على الهاتف طويلًا، أقصد.. وعليكِ السلام!

ضحكت السيِّدة/أمُّ فارس وضحكت أنا أيضًا، ما الذي جعلني أرْتَبِك إلى هذا الحدِّ؟! ما زاد توَتُّري أنَّني سمعت صوت ضحكة فارس، لم أُواصِل ضحكي؛ بل كادت أنفاسي تنقطع تمامًا من شدَّة خَجَلي!

- أين والدكِ يا ذكرى؟

- يجلس بالصالة.

- أعطيهِ جوالكِ.

- الآن؟

- لا.. الأسبوع القادم!

أظنُّها كادت تستلقي على ظهرها هي وفارس من شدَّة الضحك! استدركت:

- نعم الآن..

- حسنًا.

خرجت وخطواتي في عَلاقة عكسيَّة مع ضربات قلبي، فأنا أسير على مهلٍ، بينما نبضات قلبي أظنُّها الآن في سباق جري، وقد حسمت أمرها على أن تنال المركز الأوَّل.

ترسَّخ في ذهني قديمًا أنَّ الخوف فقط هو الذي يُحدِث توَتُّرًا، أمَّا الآن فأنا أُقِرُّ أنَّ السعادة -أيضًا- تُحدِث توَتُّرًا له مذاق خاصٌّ، توَتُّرًا يبدأ بالسلَّم الموسيقيّ، ثمَّ يتصاعد ليكمل النوتة الموسيقيَّة، لنزداد مع تصاعد الموسيقى شجنًا، هكذا التوَتُّر الذي يحدث نتيجة أمر نُحبُّه.

قلت:

- السيِّدة أمُّ فارس تريد أن تتحَدَّث معك قليلًا.

أخذ أبي الهاتف، وتسَلَّلْت أنا إلى غرفتي، كنت أودُّ أن أسترِق السمع، لكنِّي لم أفعل، ولست أدري ما المبرِّر لأن لا أفعل!

لم أكن قد تنبَّهت لأبي حينما دخل غرفتي ليردَّ إلي جوَّالي، قال وهو يبتسم ابتسامة لها رنين مختلف:

- يبدو أنَّ هناك أمورًا تحدث من وراء ظهري منذ فترة.

- أيَّة أمور؟

- لا يهمُّ، المهمُّ أنَّ صغيرتي كبرت فجأة، وخطَّابها بدأوا يتناوبون جيئة وذهابًا.

أوْمَأت برأسي إلى أسفل خجلًا من أبي، تقدَّم خطوتين حتَّى صار محاذيًا لي تمامًا، استأنف حديثه:

سأكون يا عزيزتي أمَّ العروس وأباها، لا أريد شيئًا قطُّ سوى أن تكوني سعيدة، قدِ اتصلَتِ السيِّدة أمُّ فارس بخصوص...

ونظر إلي وهو يضحك.. أكمل:

- أظنُّ أنَّ عندك علم بالموضوع، وما كان اتصال أمِّ فارس إلَّا تأكيدًا على الموضوع، ما رأيك يا ذكرى؟ فأنتِ التي رأيت فارس، وأنتِ أيضًا التي ستُمضين معه سنوات عمرك..

يا الله! لقد حشرني أبي في زاوية الحديث، ولا بدَّ من ردٍّ على حديثه..

- أخبرتَني يومًا ما يا أبي: ما لا يُمكِّنكِ منه عقلكِ، فعليكِ بقلبكِ، فهو خير دليل، أحيانًا نُخطئ التفكير، لكن لا يُمكن لإحساسنا الوقوع في الخطأ.. ولمَّا وازنت بين ما شعرت به عند طِلْبَة أمِّ فارس لي وطِلْبَة عمِّي كان البَوْن شاسِعًا، فشَتَّان بين الِارتياح الذي استَشْعرته تجاه فارس وبين تلك القبضة التي تملَّكتني؛ عدم ارتياح

تجاه محمود.. لا أعيب ابن عمّي.. حاشا لله! بل سرت حيثما سار قلبي وحسب.

- الآن اطمئنَّ قلبي يا أجمل ذكرى في حياتي، إذن عليكِ بدعوة صديقاتك منَ الآن كيما تقُمنَ بشراء ما تحتاجين إليه يوم الخِطبة، فلقدِ اتفقَتْ معي أمُّ فارس على أن تزورنا يوم الجمعة المقبِلة لإتمام مراسِم الخِطبة.. أمَّا أنا فسأتَّصِل بعمّك لدعوته.

قمت أبحث عن هاتفي أريد الاِتِّصال بكلٍّ من منى وزينب، وباقي زميلات الدراسة اللَّاتي أتواصل معهن حتَّى الآن، نفضت كلَّ الغرفة، أين اختفى هذا فجأة؟! خرجت لأسأل أبي عنه، فضحك هذه المرَّة ضحكة مرتفعة وهو يُشير إلى يدي اليُسْرى.. لقد كان الجوَّال في يدي بينما أنا أبحث عنه في كلِّ مكان!

قال أبي:

- الذي أخذ عقلك!
- لم يأخذه أحد بعد.

قلت الجملة الأخيرة وأنا أرنُّ على منى، لم تردَّ منَ المرَّة الأولى، فحاولت ثانية، جائني صوتها، يا الله! مضت أشهر عدَّة وأنا لا أسمع صوتها، أشعر ويكأنَّ صوتها غريب عليَّ، هكذا البعد يُهيِّئ لنا دومًا أنَّ كلَّ شيء أصبح مختلفًا! لم يختلف؛ بل نحن تخَلَّفنا عنه لبعض الوقت، فأصبح غريبًا كغربتنا عن أنفسنا تمامًا..

- ألو.. من معي؟

نسيت أنَّني لم أدقَّ عليها ولو مرَّة واحدة من رقمي الجديد، قلت:

- ذكرى..

- ذكرى! أنا لا أصدِّق أذني، كيف حالكِ الآن يا ذكرى؟

- بخير الحمد لله.

- أعتذر لأنَّني ما زرتك بعد مرضك الأخير ولو مرَّة، لكنِ انشغلت بحملي، فالأمر صعب جدًّا يا ذكرى! أنا أموت كلَّ يوم..!

- ما شاء الله! تمَّمَه الله لكِ بخير، فلتسامحيني أنتِ؛ فلقد قصَّرت في حقِّ صداقتنا كثيرًا.

- لا عليك، المهمُّ أنكِ بخير.

الحمد لله في أحسن حال، اتصلت اليوم لأدعوك إلى خِطبتي يوم الجمعة المقبلة.

- ما شاء الله! مبارك يا عزيزتي، لست بحاجة إلى دعوة، كنت سأشتمُّ الخبر عن بعد.

ضحكت وأنا أقول:

- أصبحت مشاكسة بعد الزواج يا منى..

- جدًّا، فأنتِ لم ترِي شيئًا بعد!

- لنرى.

- يوم الجمعة إن شاء الله.

- سأنتظركِ منَ الصباح، لن أُثقِل عليك وأقول لكِ من يوم الخميس، فالحمل قد نجَّاك..

تضحك منى وهي تقول:

- سآتيكِ منَ الفجر.

- حسنًا، اعتني بنفسكِ جيّدًا.

- وأنتِ أيضًا، إلى اللِّقاء.

- إلى اللِّقاء.

انتقلنا من يوم الِاثنين إلى يوم الجمعة سريعًا، الأيَّام قد أصابها داء السُّعار فانقلبت تأكل بعضها، ولا مُتضَرِّر من ذلك غيرنا نحن البشر.

رغم أنَّ تعاقُب الأيَّام وانتهائها بشكل مفاجئٍ أمر مُخيف، إلَّا أنَّني سعيدة لكون هذه الأيَّام مرَّت سريعًا.. جهَّزت أنا وصديقاتي كافَّة أنواع الطعام، ثمَّ حان الدور لإعدادي أنا، كنت قدِ اشتريت فستانًا أنيقًا، زهري اللَّون، مطَرَّزًا باللَّون الفضِّيّ، ضيّق من منطقة الصدر حتَّى الخَصْر، ثمَّ يتَّسِع شيئًا فشيئًا حتَّى الأرض، يُشبه ثياب الأميرات، كان لون الحجاب بلون تطريز الثوب، لأوَّل مرَّة أتطلَّع في المرآة كثيرًا، كما أنَّني للمرَّة الأولى أرتدي لونًا غير اللَّون الأسود، فحياتنا تتلوَّن باللَّون الذي يوَشِّينا به أحبَّاؤنا، أتأمَّل ملامح وجهي كثيرًا، أسرح قليلًا، ترَدِّد صديقاتي:

- رائعة أنتِ يا ذكرى! كأميرة في زمن عجَّ بالجواري، محظوظ هو فارس الذي سيُتَوِّجكِ ملكة على عرش قلبه.

- جميلة حقًّا؟

- جميلة جدًّا، كان الله في عوْنِ فارس!

- سأُعجِبُه برأيكم؟

- سيَخْتلُّ عقله..

- لا، أُريده بعقله، لكن إن كان سيُجنُّ لأجل الحبِّ لا مانع أن يكون هناك مجنون ذكرى!

تعالَتْ ضحكات صديقاتي وضحكت، نسيت أوجاع الماضي كاملة، رُحْنا نُثَرْثِر إلى أن أذَّن المغرب، ذهبنا لنصَلِّي ثمَّ نعدَّ المائدة، فهم على وشك الوصول..

سمعت جرس الباب فهَرْوَلت باتجاهِهِ لأفتح، أمسكت منى ذيل ثوبي، وقدِ استلقت على ظهرها من شدَّة الضحك تقول:

- إلى أين أيَّتها المجنونة! ما لكِ قدِ انكفأتِ على وجهكِ من أوَّل لقاء؟!

- سأفتح الباب..

ليس من تخَصُّصِك اليوم.

- حقًّا؟!

غمزت منى لزينب، وقلنَ في صوتٍ واحدٍ:

- حقًّا، وصدقًا، وكلَّ شيء..

جاء أبي وقال: هيَّا يا بنات لتجلِسْنَ مع النِّساء. بينما هو جلس مع فارس وأعمامه وأخواله..

أصبت برعشة باردة ما إن دخلت غرفة الاِستقبال التي يجلس فيها النِّساء، احتضنت أمِّي/السيِّدة أمَّ فارس، انسَلَّت منِّي دمعة مفاجأة، يبدو أنَّ هذه ما يقولون عنها دموع الفرح، صافحت كلَّ أقارب فارس منَ النِّساء، وكانتِ السيِّدة أمُّ فارس تشير مُعلِنةً عنِ اسم كلِّ واحدة..

- هذه أختي مها، رأيتِها من قبل..
- أجل، أهلًا وسهلًا..
- هذه زوجة أخي أمُّ عاصم..
- تشَرَّفت بكِ..

الكلُّ يُرَدِّد: ما شاء الله! عروس مثل القمر، خير ما اخترتم يا أمَّ فارس..

بلغت الغصَّة المدى حينما وصل الدور إلى ضحى! كان وجهها لا يُفسَّر، تنظر إلي من أعلى إلى أسفلَ، تتأَفَّف من آنٍ لآخرَ!

- وهذه ضحى، رأيتِها أيضًا..
- أنرْتِ يا ضحى..

- هذه زوجة عمِّ فارس أمُّ ياسمين..

- أهلًا بكِ، شرفتمونا..

قدَّمت كلُّ واحدة لي هديَّة، ثمَّ اقتربت أمُّ فارس وأخرجت سلسلة من ذهب رقيقة جدًّا، لم أكن أعلم أنَّها ذوَّاقة إلى هذا الحدِّ! وأصرَّت على أن تلبسني إيَّاها بيدها، في تلك الأثناء وقعت عيناي على ضحى ثانيةً، يا الله! ما لي أراها تكرهني إلى هذا الحدِّ!

هناك حلقة مفقودة في حبِّ ضحى لفارس، إذ كيف لامرأة تقبل على نفسها أن تحبَّ رجلًا لا يُكِنُّ لها أيَّة مشاعر!

تقدَّم الجميع لتناول العشاء، ثمَّ أعدَدْت لهم قهوة وعصائرَ، كلٌّ حسبما يحلو له، كانت مُكبِّرات الصوت التي في غرفتي في تلك الأثناء تُصدِر أغنية "فرحنا جميل".

خرج الجميع نساءً ورجالًا إلى الصالة لنرتدي خاتم الخِطبة، أخرج فارس طاقة من الزهور كان يُداريها خلف ظهره، كان قد دسَّ بداخله قلبين صغيرين، قال وهو يبتسم ابتسامته الرزينة تلك:

- هنا يُوجد قلبان، سنبحث عنهما معًا لنرى من يجد قلب الآخر أوَّلًا..

لم أكن أعلم أنَّ فارس رومانسي يحب المزح هكذا! يبدو أنَّه يخبِّئ الكثير في جَعْبَته! ابتسمت أنا أيضًا..

- حسنًا، لنبدأ هذا المشهد الهنديَّ.

كان صديقاتي يهتفن بصوتٍ مرتفع:

- هيَّا يا ذكرى، لتجديه أنتِ أوَّلًا..

غريب! لقد وجدناهما معًا، ففارس المحتال ربطهما بشريطةٍ واحدةٍ وخرجا معًا، كان خاتم فارس باتِّجاهي، وخاتمي باتِّجاهِهِ، ارتدَيْنا الخواتم، ثمَّ أذِن أبي لفارس أن نجلس بمفردنا، فتح أبي باب غرفتي عن آخرِهِ وأشار إلينا أن نجلس هناك، كان وجهي أكثر توَرُّدًا، على وشك أن أختفي داخل ثوبي من فرط خجلي بالرغم من أني جلست مع فارس من قبل، حاول فارس أن يكسر حاجز الخجل، فقال:

- الفستان ازداد جمالًا بكِ يا ذكرى..

لم يعلم أنَّه هكذا لم يكسر الحاجز، بل أقام آخر بجواره! ابتسمت، انحنَيْت برأسي أسفلَ قليلًا، كنت أعضُّ أظافري، لاحظ فارس ذلك..

- لا، توَقَّفي لا يُمكِنني أن آخذ عروسًا ناقصة إصبع! ماذا يقول الناس؟!

ضحكت بصوت مرتفع..

- الله! لم أكن أعلم أنكِ تضحكين!
- كفى مزحًا..
- وتتكَلَّمين أيضًا؟! سبحان الخالق!

كتمت ضحكي هذه المرَّة بالعضِّ على شفتي السفلى، ضغطْتُ بشِدَّة..

- سأخرج!

- سماح هذه المرَّة.

- لقد سامحناك.

- سلِمْتِ لي يا أميرتي.

أصابني الخَرَس مرَّة أخرى، ويبدو أنَّ العدوَى انتقلت إلى فارس فصمت أيضًا، قطعت هذا الصمت فجأةً:

- فارس!

- نعم.

- ألست نادمًا على تلك الخطوة؟

- نعم يا ذكرى، وقد نسيت ما حدثتيني به ذاك اليوم، وأتمنَّى أن تنسيه أنتِ أيضًا.

- شكرًا لك يا فارس.

- شكرًا على ماذا؟ يبدو أنَّكِ مجنونة كما قيل لي!

ضحكنا معًا، ثمَّ استدركت:

- فارس!

- نعم يا جنَّة فارس..

- ضحى..

لم أُكمِل، إذ قاطعني فارس قائلًا:

- هي ابنة خالتي فقط، مشاعرها تخُصُّها هي..

انشرح قلبي، وبدا ذلك على وجهي، لقدِ اطمأنَنْت بهذا الكلام جدًّا، نعم أصبحتُ أغار على فارس، لأوَّل مرَّة يتملَّكني هذا الشعور، الآن فقط اختبرت نبضات قلبي الحقيقيَّة، جميل هو شعور الغيرة على أحدٍ نحبُّه.

- ما لي أرى وجهكِ قد تهَلَّل! يبدو أنَّ الآنِسَة ذكرى تَغار!
- ثقيل..
- معكِ حقٌّ.

لم تكنِ الجملة الأخيرة قد خرجت من فمِ فارس، بل كانت ضحى.. دخلت بغْتَة دون استئذان! قلت:

- هذه أنتِ يا ضحى..
- نعم أنا، أمرَحَّب بي في تلك الجلسة أم لا؟
- على رأسنا..

امتقَع وجه فارس، كان يتأَفَّف، لاحظت ذلك، قالت ضحى:

- مبارك يا فارس..
- بارك الله فيك، العُقبى لكِ..

- لا أظنُّ، هكذا أفضل..

صمت الجميع، قالت ضحى:

- أستأذنكم..
- إذنك معك..

خرجت ضحى، وعدنا لنواصل حديثنا.

تذكَّرت قول "حفصة الرَّكُونِيَّة"، وهو من أقرب أبيات الشعر إلى قلبي، فرحت أُنشِده دون سابق إعداد، فقلت قبل أن يتمَلَّكني الخجل:

أَغَارُ عَلَيْكَ مِنْ عَيْنَيَ رَقِيبِي وَمِنْكَ وَمِنْ زَمَانِكَ وَالْمَكَانِ

وَلَوْ أَنِّي خَبَأْتُكَ فِي عُيُونِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا كَفَانِي

فردَّ علي فارس ببَيْت بشَّار بن بُرْد قائلًا:

هَلْ تَعْلَمِينَ وَرَاءَ الْحُبِّ مَنْزِلَةً تُدْنِي إِلَيْكِ فَإِنَّ الْحُبَّ أَقْصَانِي

لقدِ استقَرَّ البيت الذي أنشده لتَوِّه في قلبي، فازداد خفقانه، فقلت مُوارِيَة خَجَلي:

- لنُعلِنها مبارزة شعريَّة.
- وهو كذلك..

- أليس لديكَ حديث آخر؟
- بلى لديَّ..
- وما هو؟
- ذكرى.. اتَّفقتُ مع والدك أنَّ كتب الكتاب بعد أسبوعين، والعُرْس بعد خمسة أشهر، ما رأيك؟
- كما ترون..
- ومسالمة أيضًا؟! لا.. هذا كثير!
- ومشاكِسة أيضًا! لا تُحاوِل أن تُجرِّبَني..

ضحكت، وضحك فارس، تمَنَّيت أن لو أقبض على السعادة بكلتا يدي لأضعها في زجاجة فأُحكِم غلقها حتَّى لا تفِرَّ مرَّة أخرى، لكن من قال إنَّ السعادة يُمكن أن تقع أسيرة بين ثنايا قلوبنا عمرًا كاملًا! لو لم يكن هناك حزن لما كان للسعادة قيمة، فكلُّ شيء تكمن قيمته في نقيضه، فلولا الأبيض لما ازدهر الأسود، والعكس صحيح..

الفصل الخامس عشر

"العشق لا يعترف بقلوبٍ من رِجْس، بيْدَ أنَّه يعترف بقلوبٍ من نقاءٍ".

تلك الثورة التي تتوارى خلف الِابتسامات المزَيَّفة، ستنفجر حتمًا مُعلنةً عن عصيانها لذلك الصمت أو ذاك الرضا، كان هدوء ضحى

عبارة عن فترة طوارِئ لهجومٍ تشِنُّه تجاه ذكرى، إلَّا أنَّها كانت تفَكِّر فيما عليها فعله أثناء فترة الطوارِئ..

تحَوَّلت حالة الاِكتئاب عندها إلى نوبة انتقام، لنرجع إلى قوانين المرأة مرَّة أخرى، هل عرفتم في تاريخ البشريَّة امرأة خضعت للِاستِسلام؟

لا أعتقد، فالمرأة تفَضِّل الموت على أن تنثني عن رغبتها لأمر تمَنَّته، ربَّما تعمر المرأة أكثر منَ الرجل لأنَّها تقاوِم، لو لم تكنِ المقاومة من أهم القوانين عند المرأة لماتت كلُّ امرأة بعدما تضع أوَّل مولود لها..

كان أحمد جالسًا أمام التلفاز يدَخِّن سيجارة، بينما أمُّ ضحى كانت في المطبخ تعدُّ لهمُ الغداء، خرجت ضحى وهي تتميَّز غيظًا، قالت بصوت متهَدِّج:

- تجلسون ويكأنَّ شيئًا لم يحدث!

ردَّ أحمد مُتسائلًا:

- ماذا حدث؟

- وتسألني ماذا حدث؟! أمِّي.. يا أمِّي..

خرجت أمُّ ضحى من المطبخ مُسرِعة، مسحت كلتا يديها على جانبي عباءتها..

- ماذا هناك يا ضحى؟

- ما حدث منذ يومين، ألم يحرِّك لكِ ساكنًا؟

- أ ي شيْء؟

- ألم أقل لكِ عندما رأيت ذكرى أنَّ هناك شيئًا ما بينها وبين فارس؟ كذَّبت توَقُّعي!

- كلُّ شيْء نصيب..

- كُفِّي عن قول تلك الجملة لأنَّها تزيد توَتُّري!

تدَخَّل أحمد ليقَلِّل من حدَّة ذلك النقاش الذي بدأ يتصاعد تدريجيًّا..

- هدِّئي من روْعِك يا ضحى!

- هدَّأت.. ثمَّ ماذا؟!

- ثمَّ ما حدث..

- يبدو أنَّكم تكاتفتم جميعًا ضدِّي!

- أهي حرب؟!

- نعم حرب! أنا أعلنتها حربًا مذ أعلن فارس خطبته بتلك المهَلْهَلَة!

- لا تقولي مهَلْهَلَة، فهي صدقًا آية في الجمال.

- غبِيّ!

- لا، يبدو أنَّكِ فقدتِ أعصابك تمامًا!

عندما يُصاب المرء بغشاوة الغضب والإنتقام معًا، فإنَّه لا يميِّز بين ما يجب وما لا يجب، وهكذا قد ناصبت ضحى العداء للجميع.

وضعت أمُّ ضحى الطعام على المائدة، ثمَّ نادت على أحمد وضحى، جلس الجميع، قالت أمُّ ضحى:

- ألم يكنِ النصيب أن قد تمَّت خطبتهما؟
- بلى.
- قد يكون أيضًا ألَّا تتمَّ حتَّى النِّهاية.
- هذا ما دار برأسي تمامًا.

تدخَّل أحمد:

- ما الذي دار برأسك بالضبط؟
- ألَّا تتمَّ.
- قصدًا، أو بدون قصد؟
- ليكن ما يكون..
- كُفِّي عن ممارسة العناد في كلِّ شيْء.
- إن لم تكن معي، لا تكن ضدِّي.

وجَمت الأمُّ، لأنَّه ليس هذا ما كانت ترمي إليه من عبارتها، قالت مُتأفِّفة منِ ابنتها:

- لستِ صغيرة يا ضحى لمثل هذا الأفعال، ولو كان فارس لكِ منَ البداية لما ظهرت ذكرى هذه في حياته، أتمنَّى أن تجلسي مع نفسك قليلًا وتعودي لرشدك.

ثمَّ صمت أصاب الجميع، أعادت ضحى إلى رشدها؟ أم أنَّها بدأت في رسم مخطَّط لِلانتقام؟!

الفصل السادس عشر

"ويحدث أن نتثاءب بعد كلِّ انتهاكة في حقِّنا، ليس لشيْء إلَّا أنَّنا سئمنا حقارة بعض البشر حدَّ الموت".

لم يحدث غزو ولا شيْء، بل كانت زيارة مفاجئة تمثَّلت لي غزوًا، أو سطوًا مسلَّحًا بالكلمات، فالكلمات أشدُّ خطرًا من تلك الرصاصة المدبَّبة، لذا لم يكن وقع الكلمات بهيِّن؛ بل كان شديدًا.. شديدًا جدًّا..

كان يومًا عاصفًا ممطِرًا، ربَّما هي بوادر الزيارة، كانتِ الزيارة ما بين العصر والمغرب، رنَّ جرس الباب، ولأنَّ والدي لم يكن بالمنزل قمت وفتحت أنا الباب، فتحت، ثمَّ وقفت بمحاذاة الباب، ويكأنَّ أبي ركب طرفًا آخر للباب، لم أنتبه إلى أنَّ وقع المفاجأة كان أثره على وجهي إلَّا حينما قامت ضحى بعمل حركة بإصبعيها الوسطى والإبهام احتكَّا معًا فأصدرا صوتًا، ثمَّ قالت:

- ألا تستقبلو ن الزوَّار؟

- تفَضَّلي، تفَضَّلي..

مشيت أمامها، تبعتني بخطوات متأنِّية، يُعلن نعل حذائها عن أصوات خطواتها، فهي دائمًا ما تنتعل أحذيةً مرتفعةً، لاحظت ذلك من خلال لقاءاتنا الثلاثة، أشرت إليها بالجلوس فجلست.

خرجت أنا لأعدَّ فنجالَي قهوة، وضعتها على الموْقِد، ثمَّ شردت قليلًا في سبب زيارة ضحى المفاجئة، غلتِ القهوة ثمَّ غلتْ، فارت في نهاية الأمر، رفعتها، نظَّفت الموْقِد، وضعت أخرى جديدة..

- أهلًا بكِ يا ضحى..

- يبدو أنَّ زيارتي كانت مفاجئة بالنسبة لكِ.

- في الحقيقة مفاجأة.

- للأسف لم أحتفظ برقم هاتفك بعد، لذلك ما تمَكَّنت من إخبارك، وربَّما لأنّي أحبُّ المفاجآت أيضًا.

ابتسمتُ ابتسامة مصطَنَعة، ربَّما لاحظتها ضحى، وفَّرتْ على الصمت مشقَّة الترَبُّع بيننا، فقالت:

- سأدخل في صلب الموضوع.

- احتسي القهوة أوَّلًا..

- أثناء الكلام.

- كما يتسنَّى لك.

- قد تستغربين صراحتي، لكنِّي هكذا.. إذا أردت شيئًا أشرت صوبه ببناني فيأتيني طوعًا..

- جميل.

- لكنَّني أردت...

- أردتِ ماذا؟

- أردت فارس، فأدار لي ظهره.. ثمَّ ولَّى حيث أنتِ!

- إنَّها الأقدار تدور بدفاترها القديمة، ثمَّ نأخذ منها ما كان قد كُتِب لنا منذ الأزل وننفِّذه، ليس لشيْءٍ إلَّا لأنَّه ما أراد الله.

- لا تجعلي منَ الدين منفذًا تغيّرين به صلب الموضوع!

- لا منفذ ولا شيْء..

- جئت لأخبركِ أنَّني ما حلَلْت عن فارس بعد، ربَّما هي هُدْنة لبعض الوقت، فإذا أنهيتِ أنتِ الموضوع كان بها، وإلَّا أعلنتها حربًا منَ الآن..

- أي موضوعٍ؟ وأي حربٍ؟ أهو تهديد؟! لا أفهم..

- كما تتَّضح لك الرؤية، فهذا الذي عندي..

حملت حقيبتها وخرجت تخبط الأرض بكعب حذائها، ذكَّرتني بقرع المغول طبولهم عند إعلان الحرب، لم تتفوَّه بشيْء أكثر ممَّا قالت.. فاجأتني صراحتها؟ ربَّما..

أخشى أن تضنَّ علي الأيَّام بفارس، لن أتنازل عنه هكذا لمجرَّد كلمتين تفوَّهت بهما ضحى طالما أنَّ فارس أكَّد لي أن لا شيْء بينهما.

ألم أقل إنَّ وقع الكلمات أشدُّ من وقع الرصاص؟ تزلزلتُ فجأة، خِفت، إي والله.. خفت للحظات أن أخسر فارس، فارس الذي تقبَّلني كما أنا، فارس الذي يفعل أي شيْء ليُسعدني..

الفصل السابع عشر

"ولتعلم أنَّ ذاكرة القلوب أقوى أثرًا وأشدُّ بقاءً من ذاكرة العقول، فذاكرة العقول سرعان ما تُصاب بالزهايمر، هذا إن لم تصدر الأوامر إلى ذاكرة القلب بالجحود والنكران".

أذكر أوَّل لقاء بها، كنت في المرحلة الثانويَّة، لم يكن بمدرستي الاِبتدائيَّة ولا الإعداديَّة زملاء نصارى، كنت أقف أثناء الفسحة في الطابق الثاني أنظر إلى الطابق الأسفل، أراقب حركات الزملاء في صمت، فجأةً وجدت زميلة وضعت يدها على كتفي، التفتُّ، قالت:

- مرحبًا، أنا مارفي..
- أهلًا، أنا ذكرى..

قدَّمت لي جزءًا من طعامها، شعرت بشيْء غريب، رفضت بسرعة، خشيت أن تصرَّعلي لآخذ منها الطعام، قلت:

- لست بجائعة، أكلت توًّا..

ربَّما قلَّة تعاملي مع أصحاب ديانة أخرى هو الذي أحدث تلك الريبة في داخلي، كنت أسدُّ أنفي حتَّى لا أستنشق عطرها، أيُعقَل أن أكون خشيت أن تتسَلَّل ديانتها إلي من خلال أنفي؟! طفولة ساذجة، وأفعال أكثر سذاجة.. لم أتناول منها الطعام، لكنَّها قدَّمت لي عِلْكَة، قائلة:

- عَرْبون صداقة.
- شكرًا لكِ.

الطريف في الأمر أنَّني دومًا ما أخطئ في اسمها حتَّى الآن! فكلَّما رأيتها قلت:

- بورفي!
- قلت لك مليون مرَّة: مارفي..

- بورفي أو مارفي.. لن يختلف الأمر كثيرًا.

عدت إلى المنزل، سحبت أخي إلى غرفتي خِلسة، بدا علي الفزع، قال حينها:

- ماذا هناك يا ذكرى؟

- تعرَّفت على صديقة جديدة..

- جميل.

- إنَّها مسيحيَّة!

قهقه أخي، بدا لي شرّيرًا بهذه الضحكة التي تشعُّ منها السخرية! تراجع إلى الوراء، أسند رأسه على الكرسي لا إراديًّا، لأنَّه كان مخمورًا بالضحك!

- ما المشكلة؟! طوال عمرنا ونحن نتعامل معهم على أنَّهم منَّا ونحن منهم..

- حقًّا؟

- حقًّا يا ذكرى..

خرج أخي، لم يستطع أن يخبئ الطرفة أكثر من باب غرفتي، فراح الجميع يتندَّر علي طيلة اليوم!

ندمت لأنَّني أخبرت أخي.. لا، فأنا -أيضًا- أضحك الآن كلَّما تذكَّرت ذلك الموقف..

على كلِّ حال، لا نحن استقمنا على قرآننا القويم حقَّ استقامته فسعدنا، ولا هم عادوا للأصل فقوَّموا انحرافهم..

لم تتوَطَّد عَلاقتي بمارفي كثيرًا، لكنَّها لم تنقطع مطلقًا.

اختفت مارفي ككلِّ شيء فجأة، لكنَّها ظهرت من جديد، جائتني اليوم لتعطيني كارت الدعوة، فعُرْسها بعد يومين، سلَّمت عليها بحفاوة، فلقدِ اشتقت إليها حقًّا، وهي يبدو كذلك، فالإشتياق يحسُّ فقط، قلت:

- لقدِ اشتقتك كثيرًا يا بورفي..
- بورفي مجدَّدًا! هذه المرَّة العذر معك، فالغيبة قد طالت..
- معذرة يا مارفي..
- أتمنَّى أن تأتي العُرْس، فلن تكتمل فرحتى إلَّا إذا رأيتك.
- سآتي، حتمًا سآتي.
- سيسعدني ذلك.
- أين سيقام العُرْس؟
- بالكنيسة.

أُصبت بتلك الحالة التي أصابتني منذ سبع سنوات أو يزيد، قديمًا خشيت على أنفي من أن تتسرَّب إليها الديانة، أأخشى هذه المرَّة من أن أُعمَّد بمجرَّد أن تطأ قدمي الكنيسة؟ بلهاء أنا..

جاء يوم العُرْس، وصلت الكنيسة، دخلت أتوَجَّس، أرتجف، لأوَّل مرَّة في حياتي كلِّها أدخل كنيسة، جاءت مارفي تتأبَّط عريسها، قاموا

بطقوسهمُ الخاصَّة، تراتيل لا أفهم منها شيئًا على الإطلاق، خشيت أن تكون تعاويذَ، هكذا يستشعر المرء أنَّ كلَّ شيْء يسمعه للوَهْلة الأولى ما هو إلا تعويذة..

بدَّد ذاك الشعور الذي تملَّكني تلك الفرحة التي تعتلي وجه مارفي، كنت مخطئة حينما حكمت على كلِّ شيْء من دون سابق تجربة، فهاهو العُرْس قدِ انقضى، وعدت إلى منزلي وأنا أحفظ علي ديني..

الفصل الثامن عشر

"لو لم يكن في الحياة كلِّها سوى هذين اللَّونين؛ أعني الأبيض والأسود، لكفانا -نحن البشر- أن نصطبغ بما يحتويانه من درجات، فلسنا بحاجة إلى ألوان أخرى".

كلُّ شيْء في الحياة يسير وفق ألوان ودرجات تختلف حسب الشخص الذي يتقلَّدها، لا أقصد بالألوان هنا تلك التي تتلألأ أمام أعيننا من حمراء وخضراء وصفراء؛ بل أعني أنَّ هناك غَيْرة بدافع الحبِّ، وأخرى بدافع الكراهية، وثالثة بدافع الغريزة، ورابعة...

فغَيْرة ضحى ولَّدت كرهًا لا يُمكن أن يخمده أحد سوى الله تعالى، أمَّا غَيْرة شيرين يبدو أنَّها نتيجة حبٍّ عميق يكمن في سوَيْداء قلبها، لذا ابتلعت غصَّتها بسلام بعدما وقع الخبر عليها كالصاعِقَة.

أتساءل: ما الذي يميِّز شخصًا عنِ الآخر؟

إنَّه ذاك القبو ل الذي كتبه الله له بين عباده، ففارس وسيم، لكنَّه ليس بدرجة جمال يوسف -عليه السلام-، يوجد في عالمنا شباب كثير وسيمون، لكنَّك منذ اللقاء الأول تعلن عن عدم قبولك لهم، ولا تطيق لهم كلامًا، ليس لشيْء إلَّا لأنَّ الله لم يُلقِ في قلبك قبول هذا الشخص، ففارس لم يأسر أولاء الصبايا لجمال آسِر؛ بل لقبول رزقه الله إيَّاه.

دخلت شيرين الشركة فوجدت الجميع يضحك ويبارك، وحسن مُنْهمِك في توزيع الشكولاتة، بينما فارس -كعادته- منكبٌّ على مكتبه.

ابتسمت شيرين، ثمَّ اتجهت صوب حسن متسائلةً:

- ما الخطب؟ أراك تنثر شكولاتة من نوع فخم على كلِّ عمَّال الشركة..

- لا بدَّ أن تكون من نوع فخم لتناسب فخامة الموقف.

- شوَّقتني لمعرفة ما حدث..

- حدث تاريخيّ، دوِّني عندكِ..

- ها أنا أُدوِّن، ماذا هناك؟

- منذ ثلاثة أيَّام بالكمال والتمام، أعلن السيِّد فارس خِطْبَته منَ السيِّدة ذكرى..

- أعِدْ.. ماذا قلت؟!

- كما قلت لكِ.. لقد خطب فارس.

- متى؟ وكيف؟ أقصد.. لم يتفضَّل حتَّى بعزومتنا!

- لقد كانت باجتماع الأهل فقط.

- من هي العَروس؟ أنعرفها؟

- لا أعتقد.

- سأذهب لأبارك له.

خرجت شيرين من عند حسن وهي تتصَبَّب عرقًا بالرغم من أنَّها في فصل الشتاء، لم تثر كما توقَّع حسن، بل كتمت ألمها، لكنَّها على وشك أن تصاب بتشنُّجات قلبيَّة، فمصيبة القلب أنكى ألمًا من مصيبة الجسد، سارت بخطًى هزيلة نحو مكتب فارس، توقَّفت أمام

الباب قليلًا لتعدِّل من ملامح وجهها التي انقلبت لتوّهها، أخرجت مرآة من حقيبتها لتلقي نظرة على وجهها، تتأكَّد من أنَّه لا توجد دمعة تناثرت هنا أو هناك، طرقت الباب..

- تفضَّل..
- صباح الخير.
- صباح النور.
- كيف حالك يا فارس؟
- بخير.
- مبارك خِطْبتك، لقد أسعدني الخبر كثيرًا..
- بارك الله فيك، العُقْبى لكِ يا شيرين..
- إن شاء الله.

قالت شيرين جملتها الأخيرة وهي تبتلع ألمها، تلتهم غصَّتها بشراهة، يأبى كبرياؤها أن يشاهد فارس انكسارها.

الحبُّ كما يقوِّم يهدم أيضًا، فالحبُّ الذي ليس لك لا تنتزعه بالقوَّة، ففي تلك الحالة لن يتحطَّم إلَّا قلبك..

فاجأ سلوك شيرين الجميع، فكان المتوقَّع أن تثور، أن يخسر فارس عمله نتيجة لردَّة فعلها، لكنَّ عاصفتها كانت أهدأ بكثير ممَّا تصور؛ بل لم تكن هناك عاصفة منَ الأساس.

من قال إنَّ الكبرياء والحبَّ نقيضان مخطئ لا محالة، فالحبُّ الذي لا يخضع لك قاوِمْه بالكبرياء، أمَّا أن تتسلَّل كاللِّصِ لِانتزاعه لهو عَتَهٌ!

الفصل التاسع عشر

"المرء على دين هواه، فانظر هواك إن كان أحقَّ أن يتَّبع، أو خالف متى رأيت زَيْغه".

لا شيْء كامل تمامًا، ولا شيْء ناقص كلَّ النقص، لا شيْء يمنحك الشهد كلَّه، ولا شيْء يسقيك العلْقَم فقط..

جاءني اتِّصال مفاجئ من منى، رزقنا الله الستر! أحان موعد ولادتها؟! ليس بعد، ولو كان.. أكانت تتَّصل وهي في غرفة العمليَّات! ما لي أقحِم نفسي بالأسئلة، لأردَّ، وحتمًا ستأتيني الإجابة..

- السلام عليكِ، كيف حالك يا منى؟
- وعليكِ السلام، بأفضل حالٍ والحمد لله، وأنتِ؟
- بخير والحمد لله، ما يقوله حدسي صحيح؟
- ماذا يقول حدسك أيَّتها العارفة؟ ها ها ها..
- أنَّ صوتك تكسوه السعادة، غلِّف بها تغليفًا، ماذا هناك؟
- هذا صحيح، ستعرفين عندما آتي..
- آتية اليوم؟
- أجل، أم تريدين ألَّا آتي؟
- دعكِ من تلك السخافة.
- حسنًا، انتظريني بعد ساعة منَ الآن، لو تأخَّرت أخبري الشرطة..
- لربَّما أصبحتِ رئيسة الوزارة وأنا لا أعلم! على أي شيْء سيختطفونك؟!
- تُقلِّلين من قدري دومًا..

- لا لا، نأسف سيادة الرئيس..
- ها ها.. إلى اللقاء.
- إلى اللقاء.

أغلقت مع منى وعادت بي الذاكرة إلى قصائدها التي كانت تكتبها وتلقيها علي أوقات الفراغ، كانت رائعة حقًّا، كنت أقول لها:

- رائعة، رائعة صدقًا، سيكون لك مستقبل عظيم في هذا المجال، صدِّقيني..

كانت تنتشي منِّي، يُسعدها إطرائي البسيط هذا، فيعطيها دفعة إلى الأمام، كانت تمتلك موهبة فذَّة صدقًا.

ولا أعلم ما الذي جعلني أتذكَّر تلك القصائد بالذات، وفي هذا اليوم! ربَّما اشتقت حقًّا إليها وهي تستقر في أذني استقرار المقطوعة الموسيقيَّة منَ القلب.

قلت في نفسي: سأذهب إلى المطبخ أعدُّ شيئًا نأكله ونحن نثرثر، أشحت لذاكرتي أنِ ابتعدي قليلًا الآن فهو ليس وقتك، لكنَّ جرس الباب دقَّ، وصلت بهذه السرعة؟! معقول!

فتحت الباب دون أن أنظر من عدسته كعادتي، تفاجأت بشيْء يشبه المستطيل ملفوف بحرفيَّة، رُبط بشريطة لا تقلُّ أناقة عن تلك اللِّفافة، لصقت أعلاه وريقة صغيرة أكثر أناقة منهما، التقطت ذلك الشيْء من يدي صاحبه لأفاجأ بمنى تقف خلفه، قلت والِابتسامة تعتري وجهي من فرط سعادتي بمنى ومفاجأتها:

- كنتِ ستأتين بعد ساعة، أليس كذلك؟ لم أعلم أنَّك تسيرين وفق نظام الدقائق وليس الساعات..

- أعود من حيث أتيت؟

- تعالي، لا يهون علي ردُّك.

- قلت ذلك لنفسي.

اتَّجهنا معًا صوْبَ المطبخ، لم تتحدَّث منى لأنَّ هذا دأبنا، قالت منى:

- ذكرى.. إيَّاك أن تعدِّي قهوة، انسي هذا الأمر، فأنا امرأة حامل تخاف على صحَّتها وصحَّة جنينها.

- الله الله.. أصبحنا أمَّهات نخاف على أولادنا.

- بالطبع، انظري وتعلَّمي منِّي ها ها..

- تعالي نجلس في البَلْكونة أفضل.

- أجل، ألن تفتحي تلك العلبة؟ ربَّما جئتك فيها بقتيل..

- تقصدين ميني قتيل!

- لا تفتحيها الآن، سأمهِّد لك الأمر أوَّلًا..

- إليكِ المايك.

- تذكرين..

- نعم أذكر.

- اصمتي الآن، ليس وقت مزاحك.

- حسنًا، أكملي..

- تذكرين تلك القصائد التي كنت أسمعكِ إيَّاها أيَّام كنَّا في الجامعة؟ منذ فترة بدأت أكتبها على صفحتي، وأضفت إليها جديدًا بالطبع، مع الوقت أعجب الناس بها، فأصبح لدي جمهور منَ القرَّاء، وبالصدفة المحضَةِ كان ضمن متابعي صاحب دار نشر يهتم بالمواهب التي تستحقُّ ويقدِّمها للناس، فطلب منِّي أن أجمع قصائدي كي ينشرها لي في ديوان، في البداية لم أصدِّق أنَّ مثل هذا قد يحدث معي إلى أن أمسكت الديوان بيدي، كما تمسكينه أنتِ الآن..

- صدقًا تقولين؟ مبارك يا غاليتي، مبارك يا شاعرتنا..

ثمَّ أسرعتُ أفتح تلك العلبة، أجتذب الديوان منها، نسيت تلك الوريقة التى في أعلاها، لم أفتحها إلَّا بعدما ذهبت منى.

- أسميته: ديوان الغربة.

- أذكر أن أوَّل قصيدة أسمعتيني إيَّاها كان اسمها: الغربة.

- ما شاء الله! ذاكرتك قويَّة.

- أسعدتني يا منيتي، أسعدني ذلك الخبر حدَّ السماء، في تقدُّم دائم.

- سلمتِ لي، ودام لي تشجيعك الذي كان ولا زال يدفعني إلى الأمام، دمتِ لي نعم الصديقة.
- لا حرمني الله منك.
- علي أن أذهب الآن، فمحمود على وشك أن يعود من عمله.
- اجلسي معي قليلًا، لم نتحدَّث بعد!
- افعليها أنتِ ولتأتي لزيارتي.
- حسنًا، سأفعلها في أقرب وقت.
- في انتظارك في كلِّ وقت، أراك بخير.
- صحبتك السلامة.

ذهبت منى، وأخرجت تلك الوريقة لأتفقَّد ما بها، فقد كتبت منى: "إلى تلك التي دلَّتني على الدرب، ثمَّ سارت معي حتَّى نهايته، إلى سعادة الدنيا وصحبة الآخرة، إلى تلك الذكرى التى لا تبرح مضجع عقلي، فهي مستقرَّة بالعقل والقلب أينما ولَّيْت وجهي، إلى مُلْهِمتي وسندي، أهدي إليك أوَّل أبنائي، وليس آخرهم (ديوان الغربة)".

لم يعد لي سلطة على أدمعي، فبكيت فرحًا لها وبها، ثمَّ بكيت من أثر تلك الكلمات على قلبي، ثمَّ بكيت حينما تذكَّرت أنَّنا كنَّا نمتلك نفس السلاح "الفيسبوك"؛ هي أطلقته فأصابت ذاك العصفور الذي كانت تصبو إليه، بينما أنا ضربت برصاصته نفسي..

ما كان العيب عيب "الفيسبوك" فينا، بل عيب أخلاق، عيب توجيه، سوء استخدام، تذكَّرت تلك اللعبة التي كنَّا نلعبها في صغرنا "المتاهَة"، كنَّا نعجُّ بها عجًّا كي نصل إلى الهدف المنشود، وهكذا متاهة "الفيسبوك"، حدِّد هدفك فيها قبل أن تنتهي اللعبة ولا تجد لك مخرجًا..

الفصل العشرون

"لم تكن عندي كمالة حوائط كما يقولون: ظل رجل ولا ظل حيطة! بل ناديت الله أن يشدَّ بك أزري، وأن نتعانق معًا حتَّى الجنَّة".

جاء اليوم المنشود، مشاعر متضاربة، ككلِّ شيْء يحدث لنا، نصاب بنوْبات الحزن في أسعد أوقاتنا، ليس نكدًا، بل لأنَّني تذكَّرت أمراً ربَّما تناسيته لبعض الوقت، لكنِّي لم أنسه مطلقًا.

أن تعيشا جسدين بروح واحدة، تتقاسمان كلَّ شيْء؛ أفراحكما، أتراحكما، تبتسمان كلَّ صباح يوم جديد لأنَّه لم ينقص أحد منكما، كما قلت من قبل: لم تكن عَلاقتي بأبي مجرَّد عَلاقة فطريَّة فطرنا الله عليها، بلِ اخترنا أن نكون صديقين مقرَّبين، إلى جانب أنَّه أبي وأنَّني ابنته.. ليس بهَيِّن أن تطرح روحك أرضًا ثمَّ تغادر كأنَّ شيئًا لم يكن، كنت أبكي صدقًا في هذا اليوم، كيف يعيش أبي بمفرده بعدما اعتادني و اعتدته؟! أليس جحودًا أن أتركه هكذا بكلِّ بساطة لأجل رجل أنا اخترته؟! أعلم أنَّها سنَّة الله في كونه، لكن كوني أفكِّر في وحدة أبي من بعدي لهو أمر قاتل.

دخل أبي في تلك الأثناء ليلقي علي وصيَّته قبل أن أذهب إلى بيت رجل آخر، يرى منِّي أخلاق رجل جئت من بيته حاملةً اسمه، انتزع منديلًا ورقيًّا جفَّف تلك الدمعة العاصية؛ تلك التي فرَّت من أسوار عيوني هاربة مُعلِنةً عصيانها، قبَّلني بين عيني قائلًا:

- إليكِ ابنتي الغالية هذا الكلام، ليكن عقدًا ثمينًا تتقلَّدينه أينما ولَّيتِ وِجْهتك.

- كلِّي آذان مصغية، هاتِ يا أبتِ ما عندك.

- أعلم أنَّ ما أراه من حزن يعتري وجهك الجميل هو دمعة الفراق؛ لكنَّها سنَّة الحياة، فيومًا ما أخذت أمَّك من أحضان أبيها، وأنت يومًا ما ستُؤخَذ ابنتك من بين أحضانك، لذا أدعوك لأن تعلني راية الفرح رضًا بذاك الرجل الذي اخترته بمحض إرادتك.

إيَّاكِ يا صغيرتي وأسرار البيوت أن تُفشى، فآفة البيوت أسرارها إن أُعلِنت لكلِّ من دقَّ وولَج.

حماتك تاج فوق رأسك، فهي أمُّك التي لم تلدكِ، ستُسألين عن برِّها أيضًا، لا تنسي ذلك..

متى غضب زوجكِ اتركيه ريثما يهدأ، ثمَّ عودي إليه بطيب يديكِ يأكله، وطيب كلمك يهدهده، وبحضنك يحتويه، فكلاكما وطن للآخر.

المشكلات يا صغيرتي لا تحلُّ بعلوِّ الصوت وقطع الأنفاس؛ لكنَّها كالسياسة يلزمها تفكير دبلوماسي أوَّلًا، ثمَّ إنَّها كفرع شجرة تالِف، اقطعيه بهدوء كيما ينمو آخر غيره أكثر نضارة من سالفه، هذا واذهبي لتعدِّي نفسك، لا نريد عَروسًا بشِعَة قد سال الكحل على وجهها فصارت كعفاريت آخر الليل ها ها ها..

قمت فقبَّلت أبي بين عينَيْه، وعلى يدَيْه، وعلى رجلَيْه، ثمَّ انطلقت سعيدة إلى مركز التجميل.

لم أكن قد رأيت قاعة العُرْس، فقد تركت هذا الأمر لفارس، أنا أثق في ذوقه جدًّا، انبهرت حينما وصلنا قاعة العُرْس، كانت تصميماتها هادئة بارعة، ابتسمتُ، ثمَّ نظرت إلى فارس فأرسل لي غمزة بمعنى: أتمنَّى أن تكون قد أعجبتكِ.. أرسلت له أخر ى: أن نعم؛ أعجبتني جدًّا..

جلس الجميع على الطاولات المخصَّصة لهم، بدأت موسيقانا الهادئة التي اختارها فارس بعناية تُعلِن أنَّ العرس قد بدأ، أشار فارس إلى المسؤول، فدقَّت موسيقى أغنية "هي دي اللِّي اخترتها، اللِّي دينها مهرها، اللِّي روحها فرضها، اللِّي حافظة ربَّها".

في تلك الأثناء تقدَّم فارس نحوي وهو يحمل علبة مستطيلة، بدت لي علبة شكولاتة، فتحها وكانت كما توقَّعت، أشار إلي أن آخذ واحدة، قلت:

- الآن؟!
- نعم، الآن..
- حسنًا..

مددت يدي، فأشار إلى واحدة مختلفة اللَّون، أكبر حجمًا من مثيلاتها، أخذتها، قال:

- قومي بفتحها..

فتحتها، فإذ بها علبة مستديرة صغيرة، فتحتها، إذ بخاتم ذهبيٍّ، زخرف عليه بخطٍّ أنيق -سبحان من منح صاحبه تلك المهنة-: "أحبُّكِ ذكرى".

متى جهَّز فارس لهذا؟! وكيف اتَّفق مع الصائغ أن يعدَّه بهذه الطريقة؟! لست أدري..

خرجت دموع الفرح بالرغم من مقاومتها، ثمَّ احتضنت فارس ذاك الحضن الذي لم أحتضنه لأحد من قبله، ولا أحد من بعده، وأصبحت لا أرى في القاعة سواه.

انتهت تلك الليلة الصاخِبة بكلِّ ألوان الفرح، خرجنا من القاعة، ركبت السيَّارة بجانب فارس الذي رفض أن يسوق أحد السيارة غيره مرَّ بي في كلِّ شوارع القاهرة، كم من الوقت مضى؟ لم نركِّز، فأوقات السعادة تمرُّ سريعًا، عدنا إلى المنزل، أوَّل ما فعلناه صلينا معًا ركعتي شكر لله على أن جمعنا معًا.

فكما قلت: لم يكن فارس مجرَّد اسم، بل هو ذاك الفارس الذي كانت تدعو أمِّي دومًا في صلاتها أن يرزقني الله به، فتقبَّل الله دعاءها.

همس فارس بأذني فجأة:

- عديني بأن تكوني لي مريم، كيما أكون لكِ يوسف.
- أعدك بذلك.

- وأنا -أيضًا- أعدك بذلك يا مريم، أقصد.. يا ذكرى، لن تري مِنّي إلَّا كلَّ خير.

- ستكون ابني الأوَّل والأخير.

- لا، ابنك الأوَّل إلى جانب ستَّة آخرين..

- لست من سلالة الأرانب لأنجب كلَّ هذا العدد!

ضحك فارس وهو يقول:

- سنتناقش فيما بعد في ذلك الأمر يا مُهجة القلب.

لم يُمهِلني فارس لأردَّ عليه، إذ طبع على شفتي قُبْلَة حارَّة، فثملت به كما ثمل بي...

الفصل الحادي والعشرون

"ستنفتح أمامك تلك الشفرات المغلقة لبعض البشر، ستخبر طباعهم الحقيقيَّة، ستظهر سوءاتهم فيما بعد، فلا تجزع عندما تتبيَّن حقيقتهم".

لم يكن حلمًا؛ بل كان حقيقة من أجمل حقائق الدنيا وأمتعها، قالوا:

المرأة تنضر حينما يكون بجانبها رجل يجلب لها السعادة. أيُمكن أن أكون قد تورَّدت هكذا فجأة ما بين عشيَّة وضحاها؟!

في الغالب الليلة الأولى منَ الزواج لا تبيِّن النوايا التي سيعيش بها الزوجين طيلة حياتهم، لكنَّها بوادر العَلاقة، وعادة ما تحدَّد طريقة التعامل من تلك الليلة.

فلا هو ذبح لي القطَّة منذ اليوم الأوَّل، ولا أنا أعلنت تمرُّدي ليعلم أنَّ هذا ديدني..

لن أقول لكمُ استيقظت فوجدت فارس أعدَّ لي الطعام ثمَّ جاء به إلى السرير تدليلًا لي، بل إنَّه أيقظني لصلاة الفجر، وهذا ما زادني اطمئنانًا، فرجل يتَّقي الله حتمًا سيتَّقيه في زوجته.

لم أنتظر حتَّى تصعد إلي أمُّ فارس، بل نزلت أنا وقبَّلت يديها كما أفعل تمامًا مع أبي، تهلَّلَت بذلك الفعل، وهذا أسعدني جدًّا، كان فارس يرقب الموقف من بعيد، تنبَّهت إلى ملامح وجهه إذ بها أكثر تورُّدًا من ذي قبل، يا الله! جميل كالأطفال حينما يضحك، سألت الله في تلك اللحظة أن يديم السعادة على هذا البيت.

دقَّت الساعة الرابعة عصرًا، فرنَّ جرس الباب، قام فارس وفتح، إنَّه أبي وزوجة عمّي وأبناء عمّي، ومنى وزينب، لقد كانت مفاجأة جميلة أن تأتي صديقاتي مع أهلي لزيارتي.

قالت منى المسحوبة من لسانها كالعادة:

- لم أكن أعلم أنَّ الزواج يزيد المرأة جمالًا إلى هذا الحدِّ، فلقد تزوَّجتُ وأصبحتُ أبشعَ من ذي قبل، ما لك قد خالفتِ القاعدة؟!

- بارك الله فيكِ يا منى.

ضحكت منى ضحكة مدوِّية وهي تقول:

- ألف مليون مبارك يا ذكرى، الزيارة القادمة أجد عندك من يقول لي: خالتي!

تناولنا الغداء معًا، جلس الجميع يثرثر تغمرهم الفرحة، تسلَّلْت أنا ومنى وزينب من بينهم إلى غرفة النوم، نودُّ أن نثرثر في أشياء تخصُّنا نحن، قالت منى:

- ما رأيك في الزواج؟
- الرأي رأيك، فأنتمُ الأقدمون السابقون العالمو ن.
- المتحَذْلِقون!
- بعض ما عندكم يا عزيزتي.

ثمَّ التفتُّ إلى زينب مُتسائلةً عن أخبارها:

- لو أعلم أنَّ الزواج سيجلبك لعندي لتزوَّجت منذ زمن أيَّتها النذلة! المهمُّ.. كيف حالك؟

- الظروف فقط هي التي تمنعني يا ذكرى، أنا بخير، فتحت محلًّا لبيع أدوات التجميل، واتسع مجال عملي بعدما قمت بعمل جروب على "الفيسبوك" لعرض المنتجات التي أبيعها، وبالتالي أصبح لي اسمي بعدما رأيت إقبال الناس علي من خلال هذا الجروب.

يا الله! الكلُّ يستفيد من هذا الموقع إلَّا أنا.. فقد كنت الحمقاء الوحيدة! كنت على وشك أن أضيع أبدًا لولا ستر الله.

غادر الجميع، وألقيت جوْلَة سريعة على شقَّتي التي لم أرها كاملة بعد، لم أكن أعلم أنَّ فارس قارنًا نهِمًا إلى هذا الحدِّ، فلقد وجدت عنده مكتبة كبيرة تشتمل على كتُب في كلِّ العلوم، خصَّص لها غرفة خاصَّة فقط بالقراءة، رُحْت أقلِّب في محتوياتها، فوقعت في يدي رواية "الأسود يليق بكِ"، كنت على وشك أن أغرق في لُجَج ماضيَّ، لكنِّي أشحت بوجهي، وألقيت الرواية بسرعة، ثمَّ هرولت إلى الخارج.

مضى اليوم الأوَّل منَ الز واج كالأحلام التي في مخيلاتنا، وكانت زيارة أهلي بمثابة المقبلات التي تزيد الجِلسة متعة.

جاءت زيارة ضحى باردة فاتِرَة كالعادة، لم تكن هديَّتها عاديَّة، بل كانت مختلفة كاختلاف طبعها معي، فكانت عبارة عن خنجر

مُزخرَف، موضوع في علبة زُخرِفت بنوع من اللولي فضِّي اللون، كانت هديَّة باهظة الثمن، إلَّا أنَّها تبقى أوَّلًا وأخيرًا خنجرًا!

أمَّا مارفي فقد زارتني بعد ضحى بسوَيْعات قليلة، ابتهجت جدًّا لزيارتها، لم أكن أتوقَّع أصلًا أنَّها ستزورني بعد العُرْس، قدَّمت لي هدِيَّتها، قالت:

- أتمنَّى أن تنال إعجابك.
- بالطبع ستعجبني.
- إذًا افتحيها الآن..

فتحتها، فإذ بهما بجامتان وقميصا نوم، كانت هديَّةً غريبة فريدة من نوعها، نظرت إليها باستغراب..

- أعجبتني.
- فلتجرّبيهم..
- فيما بعد.
- الآن، لربَّما المقاس لا يناسبك، أوِ الألوان..
- أيًّا كان، فهي تعجبني طالما أنَّها منك.
- لأجلي جرّبي أن ترتديهم الآن..
- حسنًا.

ارتديت واحدًا تلوَ الآخر، كانوا بحقٍّ تحفةً فنِّيَّةً عليَّ، لم أكن أعلم أنَّ مارفي ذوَّاقة إلى هذا الحدِّ، فاجأتني بصدق..

بينما أنا أرتديهم قالت:

- ذكرى أين جوَّالك، سأصوِّركِ به كيما ترينهم عليك.
- حسنًا، ها هو..

أخذتِ الجوَّال، والتقطت لي عدَّة صور، نسيت وجودها مع الوقت، إذ لم تكن عَلاقتي بالجوَّال تتعدَّى طور أنَّني أهاتِف زوجي أو أبي أو أصدقائي، أو هم يهاتفونني.

كانت زيارة مارفي خفيفة كخفَّة ظلِّها تمامًا، تحبُّ أن تمزح كثيرًا، ربَّما هذا هو الذي يميِّزها عن صديقاتي الأخريات، إلَّا منى بالطبع.

زارتني -أيضًا- شيرين، ولأوَّل مرَّة أتعرَّف عليها، مهندسة أنيقة هادئة، قد حكى لي فارس عنها وما كانت تكنُّه له من مشاعر، بيْدَ أنَّها كانتِ امرأة ذكيَّة، فلا هي جعلتني أشعر بأنَّها تحبُّ فارس، ولا أنا جعلتها تشعر أنَّني أعرف شيئًا.

في كلِّ مرحلة جديدة من عمرنا سنلتقي بأناس جُدُد، سنسبر أغوارهم، وهم كذلك سيسبرون أغوارنا، سيُبحر كلُّ واحد منَّا في بواطن الآخر مع الوقت إلى أن يصل إلى الأعماق، المهمُّ أن تكون ذكرى طيِّبة، سواء عبرت هذه الذكرى ككلِّ شيْء أم رسخت.

الفصل الثاني والعشرون

"حينما يحلُّ الموت ضيفًا لن نرحِّب به، لكنَّه سيفرض نفسه، وما علينا إلَّا أن نتقبَّلَه شئنا أم أبينا".

الموت هو الحقيقة الوحيدة في الكون، وما عداه كذب وإفك مفترًى، وبالرغم من ذلك نفرُّ منه فرار السليم من الأجرب، ويكأنَّنا لن نُصاب به أبدًا.

بعد مرور أسبوعين بالتمام والكمال، استأذنت فارس في زيارة أبي، فردَّ قائلًا:

- كنت سأطلب ذلك منك غدًا.

- القلوب عند بعضها يا عزيزي، لكنِّي سأمكث هناك يومين كاملين.

- كما يتسنَّى لكِ، وإن كنت لا أقدر على بعدك ولو دقيقتين يا حبيبتي.

- رجل لَعُوب.

- إنَّها الحقيقة، شئتِ أم أبيتِ..

- سأصدِّقك، ليس لشيْء إلَّا لأنَّك صادق، والصدق مفتاحه العيون.

في اليوم التالي اصطحبني فارس لعند بيت أبي كما اتفقنا، حملنا له معنا بعض الهدايا، صدقًا كنت مشتاقة له حدَّ السماء، فالحياة بجوار زوجي جميلة، لكنَّها بجوار أبي حتمًا أجمل.

عندما شارفنا على مدخل العمارة، وجدنا صيوانًا قد نُصب للعزاء، أسرعت مُهرولة صوْب العمارة وفارس يلحق بي، كان العزاء في الدور الأوَّل، فجاء ببالي على الفوْر السيِّدة أمُّ أحمد، لكم كنت أنانيَّة! انشغلت بنفسي الفترة الماضية ونسيت هذه المرأة المسكينة! وصلنا شقَّة أبي، فتحت لأنَّني ما زلت أحتفظ بنسختي منَ المفاتيح، وإن كان منَ الذوق أن أدقَّ الجرس، لكنِّي أردت أن أُفاجئ أبي، كان يجلس أمام التلفاز يستمع قناة المجد القرآنيَّة، يحتسي كوبًا منَ الشاي، قام متهلِّلًا، ثمَّ صافحني وعانقني، ثمَّ فعل كذلك مع فارس، قلت بعدها:

- منِ الذي مات بالعمارة يا أبي؟

- إنَّها السيِّدة أمُّ أحمد رحمها الله.

- رحمها الله، رحمها كثيرًا منَ المرض والغربة يا أبي.

- صحيح، فلا شيء أصعب على المرء من كوْنِه يشعر بغربته في مجتمعه، ووحشة ذاته.

في اليوم التالي شاهدت نفس السيَّارات الثلاث التي كانت تقف أمام العمارة، كانوا من ماركة عالية، باهظة الثمن، تدلُّ على ثراء أصحابها، ناديت أبي، وقف بجواري في البَلْكونة، قلت:

- لمن هذه السيَّارات؟ إنَّها تقف هنا منذ البارحة.

قال أبي بعدما أصدر صوتًا يدلُّ على الشفقة:

- إيه يا بنَيَّتي.. هذه السيَّارات لأبناء أمِّ أحمد رحمها الله، أحمد ومحمد ورنا، لم يذهبوا، بل أصرُّوا على أن يأخذوا العزاء هنا.

- أي خير هذا الذي يملأ قلوبهم؟! يقدِّرونها بعدما رحلت! أين هي منهم عندما كانت في أحلَكِ الظروف، وهي في أشدِّ ما تكون الحاجة، تركوها لمرضها يأكلها روَيْدًا روَيْدًا، نعم الأبناء! نعم الأبناء!

- هكذا الدنيا يا ابنتي عندما تلهي الأبناء.

- عن آبائهم؟! عن أمَّهاتهم؟! ألا سُحْقًا لها ولهم..

سمعنا صوت الأذان يؤذِّن لصلاة الظهر، فاتَّجه كلٌّ منَّا إلى قبلته، داعين الله ألا تسحرنا الدنيا فنكون من عبيدها.

الفصل الثالث والعشرون

"لو كان الظلم رجلًا لأوْقَعْته أسيرًا في شباك حبّي، فإذا ما أحبَّني وأصبح أكثر الناس عشقًا، ولَّيت عنه مُدبِرة، فيتأوَّه حتَّى يقتله العِشْق".

مرَّت سبعة أشهر مذ تزوَّجنا، وها أنا حامل في شهري الرابع، سعيدة لأني أحتفظ بشيء من فارس بداخلي، لم يكدر صفو حياتنا شيء حتَّى الآن.

لكن كلُّ ما حدث لم يكن بالبال ولا في الحُسْبان، جاءت ضحى لزيارة خالتها في ظهر يوم الثلاثاء، سلَّمَت على الجميع، ثمَّ انفردت بخالتها تتحدَّث معها، ذهبت أمِّي إلى المرحاض ثمَّ عادت، وكنت أنا مُنهمِكة في إعداد الطعام، أنتظر الساعة الخامسة أن تدقَّ حتَّى يعود إلي فارس، وضعت الطعام على المائدة، ثمَّ أخبرت أمِّي بأنَّ كلَّ شيْء جاهز، قمنا جميعًا لتناول الغداء، انتهى الجميع، وقمت أنا لتنظيف الأواني التي اتَّسخَت وتهذيب المطبخ، نادتني أمِّي قائلةً:

- ذكرى..
- نعم يا أمِّي.
- أعدِّي لنا الشاي يا ابنتي وتعالي لتجلسي معنا.
- أعدُّه، دقائق فقط يا أمِّي.

في تلك الأثناء ذهبت أمِّي إلى غرفتها فجأة، ثمَّ عادت، كنت قد أعدَدْت الشاي وذهبت لأقدِّمه لهما، بينما تفصلني عنِ الباب خطوتين سمعت أمِّي تقول لضحى:

- ماذا يفعل جوَّال ذكرى بين يديك؟

- لا شيْء، كنت أنظر كمِ الوقت، فساعتي غير مضبوطة، على كلٍّ يا خالتي أجئتيني بالمائتي جنيه التي طلبتها منك؟

في الحقيقة...

في الحقيقة ماذا؟

كنت قد وضعت حوالي ألف جنيه تحت الوسادة، وذهبت لآتيك بالمائتي جنيه منها، لكنّي لم أجد ولا فلسًا واحدًا!

- غريب هذا الأمر! لم يكن يحدث من قبل يا خالتي، أليس كذلك؟

- إلام ترمين يا ضحى؟

- إلى ما دار بذهنك..

- دعكِ من تلك السخافات، فلو أنك وطأت الدنيا كلها بقدمك لن تجدي آمَنَ مِنْ ذكرى.

انتهى الحوار عند هذا الحدِّ، لم أقصد التصَنُّت والله، لكنَّ الموقف استوقفني بالرغم منّي، قدَّمت الشاي، ثمَّ قلت لأمّي بأنَّني ذاهبة لأستريح لأنَّني مُتعَبة، واستأذنت ضحى على إثر عبارتي الأخيرة.

دقَّت الساعة الخامسة، ثمَّ السادسة، ثمَّ... إلى الساعة الثانية عشر، لم يصل فارس، وكلَّما هاتفته لا يردُّ، بدأ القلق يأكلني، أأنزل

إلى أمّي وأُخبرها؟ لا سأُقلِقها في هذا الوقت المتأخِّر، ماذا أفعل يا ربّي؟ أتَّصِل بشيرين؟ ربَّما هي نائمة الآن!

الكثير منَ الأفكار تأخذ جوْلة برأسي، والكثير منَ الخوف ينخَر قلبي، لم يفعلها فارس مذ تزوَّجنا ولو مرَّة واحدة، لم يتأخَّر عنِّي مُطلقًا، ولو تأخَّر ساعة كان يتَّصل قبلها ويُخبِرني بأنَّه سيتأخَّر.

أعدَدْت لي فنجال قهوة، مع العلم أنَّني ما تناولتها قطُّ مذ حملت بجنيني هذا، ذهبت باتِّجاه المكتبة، أخرجت كتاب "رسائل الأحزان" للرَّافِعِيّ، بحثت في موسيقى جوَّالي لأوَّل مرَّة عن أغنية تسلِّي وحدتي، أو تُذهِب عنِّي قلقي، كتبت: فيروز، ثمَّ اخترت قصيدة "أعطني الناي وغنِّي، فالغنا سرُّ الوجود".

لفظت عيني أوَّل دمعة في بيت فارس، كيف أصبح مستهترًا فجأة! ألا يعلم أنَّني حامل والقلق يضرُّ بي وبالجنين! الساعة الآن الثانية بعد منتصف الليل، سأحاول أن أنام وإن كان ضربًا منَ المستحيلات أن يحدث..

سمعت دوْرَة المفتاح في أحشاء الباب، فقمت كالمجنونة صوْبَه، كان فارس قاتِم الوجه عابسًا، ما رأيته هكذا من قبل، سألته:

- لماذا تأخَّرت إلى هذا الوقت؟ ماذا هناك؟ لمَ كلُّ هذا العبوس؟ أحدث سوء؟ أنت بخير؟

كنت أحدِّث نفسي، فأنا أسأل وهو يكتفي بالصمت، صِحْت فيه:

- حدِّثني كما أحدِّثك، من باب الذوْق أن تتَّصل بي أو حتَّى تردَّ على اتصالاتي! طمئنِّي يا أخي! لقد أكل الخوف من قلبي وشرب! لماذا لا تردُّ؟!

- تريدين أن تعرفي لماذا؟

- أجل!

ثمَّ صمت طويل، اقتربت منه، فإذ بي أشتمُّ رائحة سجائر عابِرة من فمه إلى أنفاسي، انتفَضْت من مكاني قائلةً:

- سجائر يا فارس! سجائر! ما عهدتك يومًا مدَخِّنًا!

- أجل.. سجائر أيَّتها الزوجة الـ.. مثاليَّة!

- ما هذه النبْرة يا فارس؟

- ألا تعجبكِ؟

- تحدَّث، فلقد نفد صبري، وما عدت أحتمل أكثر من ذلك!

- أحدِّثك بماذا؟! أي حديث تحبِّين أن تسمعي أيَّتها الزوجة المخلصة؟

- قل ما شئت يا فارس، فكلِّي آذان مصغية..

- ألم تعديني بأن تكوني لي مريم؟!

- بلى وعدت، ووفَّيت يا فارس، وفَّيت..

- كذب! كلُّ شيْء كذب!

- عن أي كذب تتحدَّث؟!

- ظننت أنَّ من به داء حتمًا سيبرأ منه! لكن نسيت أنَّ هناك استثناءات لا يُمكن استئصالها، وعلى رأسها داء الخطيئة، فهذا العضال حينما يتفشَّى في الروح لا يبرحها أبدًا..

- داء ماذا؟! وأي عضال؟! أنا لا أفهم شيئًا!

- تتغابين؟

- ولمَ أتغابى؟

- لتبقي بنظري تلك الشريفة العفيفة!

- شريفة رغم أنفك يا فارس..

- اصمتي! فما عدت أحتمل كلمة أخرى منك..

- منِّي! أنا ذكرى يا فارس.. ذكرى...

- للأسف! أصبحت أسوأ ذكرى..

- شكرًا لك على كلِّ شيْء يا فارس..

- العفو، ألا تريدين معرفة ما قدَّمته لي مكافأة نهاية الخدمة؟

- يا ليت!

- أليست هذه صورك؟!

ألقيت نظرةً سريعةً..

- أجل..

- أليست هذه رسائلك؟!

أصابتها دهشة كادت تخلع قلبها من بين جنبيها وهي تقول:

- لا لا.. مُحال أن يكون هذا كلامي!

- لماذا اخترت أحمد ابن خالتي من بين كلِّ الرجال؟! لماذا يا ذكرى؟!

- والله ما حدث شيْء من هذا! لا بدَّ وأنَّه سوء فهم، مؤكَّد..

بكيت بكاءً موجِعًا، ليس بسبب هذا الاِتِّهام الذي وُجِّه إليَّ، بل لأنَّ فارس صدَّق ذلك!

سرعان ما قفز في رأسي بيت المتَنَبِّي الذي قاله في سَيْف الدولة:

يَـا أَعْـدَلَ النَّـاسِ إِلَّا فِي مُـعَـامَـلَـتِـي

فِيـكَ الْخِصَـامُ وَأَنْتَ الْخَصْـمُ وَالْحَكَـمُ

هل نِمْت في تلك الليلة؟ لم أعرف للنوم طريقًا، ولا هو كذلك، لكن تمَنَّيْت أن يُسفِر الصباح وقد هدأ فارس وفكَّر في الأمر، وتأكَّد من أنَّني بريئة براءة الذئب من دمِ ابن يعقوب..

لكنَّ الرياح أتت بما لم تشْتَهِ السفن، بعدما استيقظ فارس لم يلتفت نحوي مطلقًا، قال وهو يغضُّ الطرف عنِّي:

- غادري المنزل الآن، فما عاد لنا عيش معًا!

- ماذا تقول؟!

- ما سمعتِهِ الآن..

- أرجوك يا فارس! اسمعني..

- كلُّ شيْء انتهى، فخيانتك مثبتة، لا يُمكنك الإنكار!

- سأذهب يا فارس، ليس لأنَّني مذنبة كما تدَّعي، أو كما يُهيَّأ لك، بل لأنَّ شكَّك في هو أكبر صفعة تلقَّيتها حتَّى الآن!

- وأنتِ أكبر مقلب شربته في حياتي!

- سلِمْتَ وسلِمَ تفكيرك..

ثمَّ غادرت، ولا أعلم بماذا سأخبر أبي، لكن عندما وصلت وعلم أبي أنَّ هذه ليست مجرَّد يارة عاديَّة، مهَّدت له الأمر بهكذا حديث:

- أبي.. لن أخبرك بسبب المشكلة؛ لأنَّ هذا شيْء بيني وبين زوجي، لكنِّي أخذت بنصيحتك فتركته حتَّى تهدأ عاصفة الغضب..

- خير ما فعلتِ يا بنَيَّتي، وجمع الله بينكما عمَّا قريب مفرِّجًا كربكما.

عاد أبي وهو يخبط كفًّا بأخرى، يذكر الحَوْقَلة، ثمَّ يستغفر الله، قلت:

- ماذا هناك يا أبي؟

- لقد تفَجَّرتِ اليوم كاتِدْرائيَّة القدِّيس مُرْقُس!

- لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العلي العظيم!

ذهبت نحو التلفاز، أشعلته، قلَّبت القنوات سريعًا، استوقفني صوت المذيعة وهي تقول:

-

"اليوم الأحد في الحادي عشر من ديسمبر ٢٠١٦م، تمَّ تفجير الكاتِدْرائيَّة المرْقُسِيَّة في العباسيَّة بمدينة القاهرة، بسبب عبوة ناسِفة.. قُتِل على إثر ذلك ٢٩ شخصًا، وأصيب ٣١ آخرون".

قلت والحزن يعتري صوتي:

- إلى متى تظلُّ أحوال البلد هكذا تسوء؟!
- عسى الله أن يجعل له آخر..
- اللهمَّ آمين.

الفصل الرابع والعشرون

"سينفرِط عقدك أنت، حينما تنصهر ذاتك فيما قِيل وما سيُقال".

نهار يعقبه ليل، وليل يعقبه نهار، الأيَّام رتيبة جدًّا، أبتسم حتَّى لا يحزن أبي، لكنَّ داخلي عابس أشدَّ ما يكون العبوس، أتذكَّر غزل فارس المرح فأضحك، أتذكَّر ابتسامته فأضحك، لكنَّني سرعان ما أبكي لأنِّي افتقدت كلَّ هذا، بالأحرى افتقدت روحي..

كان جوَّالي في وضع صامت، لكنِّي لمحت إضاءته من بعيد، ألقيت نظرة، فإذ بها أمِّي "أمُّ فارس"، حاولت أن أتجاهل الاِتِّصال، لكن لا يُمكنني، ففتحت:

- السلام عليكِ يا ذكرى..

- وعليكِ السلام أمِّي.

- كيف حالك يا عزيزتي؟

- بخير أمِّي طالما أنَّك بخير.

- لا، لستُ بخير مذ غادرتِ المنزل، لماذا يا ذكرى؟ كلُّ المشاكل تحلُّ، لكن أن تغادري المنزل فهذا ما أحزنني جدًّا!

- آسفة لك يا أمِّي أشدَّ ما يكون الأسف! كلُّ شيْء سيحلُّ في وقته..

- سآتي لأصطحبك معي إلى المنزل..

- رجاءً أمِّي لا تفعلي هذا، الأمر بيني وبين فارس، حتمًا سيهدأ ويأتي من نفسه.

- لكن ما الذي حدث لكلِّ هذا؟! ففارس لا يقول شيئًا!

- ولا أنا سأقول شيئًا، سنكتفي بالصمت إلى أن يأذن الله بالفرج.

أغلقت الجوَّال، وازداد خناقي بعدما هاتفتني أمِّي، فلا ذنب لها بما يحدث بيننا، فالله الذي برَّأ عائشة من فوق سبع سماوات في حادثة الإفك، قادر على أن يبرِّئني أيضًا.

أشهر خمس مضت وأنا في بيت أبي، لم يكلِّف فارس نفسه أن يرفع جوَّاله يطمئنُّ علي أو على طفلنا، لكن لم يخب رجائي، فبينما أنا مستلقية على السرير، التقطت اسم فارس على الشاشة يهاتفني، لم أتمهَّل ثانية واحدة..

- كيف حالك يا فارس؟ -ثمَّ صمت- يعني أنِ: اشتقتك كثيرًا..

- اتصلت بك لأخبرك أمرًا مهمًّا..

- ما هو؟

- سأعمل على إجراءات الطلاق منَ اليوم.

- فارس! فارس!

أغلق، ثمَّ أغلق الدنيا في وجهي بقوله هذا، لماذا يفعل بي كلَّ هذا؟! ربَّما هو ذنبي أكفِّر عنه الآن..

ألم شديد يعتصِر بطني، ناديت أبي:

- ماذا هناك يا ابنتي؟

- أرجوك! أسعفني أبي، يبدو أنَّه قد حان موعد الولادة..

أسرع بي أبي إلى أقرب مشفًى، أخبر الطبيب أبي بأنَّني سألد الآن، فقام أبي بعمل الإجراءات اللازِمة لذلك، ودخلت أنا غرفة العمليَّات...

سألد طفلًا بلا أسرة! كم أصبحت حالتي يُرثى لها..

﴿الفصل الخامس والعشرون﴾

"تلك الزهور التي ذبلت ستزهر من جديد، وذاك القلب الذي انكسر حتمًا سيلتئم، وهاتيكم الهمُّ الذي ترسَّخ لا بدَّ أن ينمحي، فقط ثق بالله تعالى".

لم يفتح بمفتاحه كعادته، رنَّ الجرس ففتحت أمُّه، كان أحمد مكفهرَّ الوجه، ارتمى بين أحضان أمِّه، بكى؛ كانت دموع الندم، ربَّما تلك الدموع هي التي أعادته إلى رشده، تعجَّبَت أمُّه من تلك الحالة التى يرتديها أحمد لأوَّل مرَّة، تساءلت:

- ماذا هناك يا أحمد؟
- لا شيْء يا أمِّي، إنَّها حالة منَ اللاشيْء..
- لا شيْء ماذا وأنت تبكي هكذا؟!
- آهٍ يا أمِّي! ابنك الذي على مشارف الثلاثين نُصِب عليه!
- نصب؟!
- أجل.. نصب!
- وكيف حدث ذلك؟!
- أتذكرين ذاك الرجل الذي تعرَّفت عليه من خلال الفيس، وقال أنَّه سيبحث لي عن عقد عمل في إيطاليا؟
- أذكر.. نعم، أذكر ذلك الحديث، لم أكن مطمئنَّة وقتها.
- لقد أعطيته كلَّ ما أملك من مال في مقابل السفر إلى إيطاليا! ثمَّ...
- ثمَّ ماذا؟!
- ثمَّ إنَّه اختفى.. اختفى يا أمِّي، وأغلق حسابه الفيسبوكِيَّ، وأغلق جوَّاله، ولما سألت عنه عدَّة أصدقاء اتَّضح لنا بعد البحث أنَّه نصَّاب!

كادت أمُّ أحمد تبكي، لكنَّها تجلَّدت لأجل ابنها، قائلةً له:

- فداؤك كلُّ أموال الدنيا، الأموال تذهب وتجيء، المهمُّ أنَّك بخير.

احتضنت أحمد، ثمَّ قالت:

- سأذهب لأعدَّ لك الغداء.

دخل أحمد غرفته وهو يجرُّ أذيال الخيبة خلفه، أو ربَّما هي التي تجرُّه، بدأ أحمد في استعادة حساباته من جديد، وعمل ضبط مصنعي لأخطائه التي اقترفها، قال في نفسه:

- ربَّما ما حدث لي هذا هو نتيجة ذلك الذنب الذي ارتكبته في حقِّ فارس وذكرى، لا بدَّ أن أُعيد المياه إلى مجاريها قبل فوات الأوان..

أخرج أحمد جوَّاله من جيب البنطال، أخرج رقم فارس، ثمَّ اتصل معتذِرًا عمَّا اقترف..

- ألو.. فارس.

- ماذا تريد أيُّها النذل؟!

- معك كلُّ الحقِّ، فأنا نذل، جبان، سيِّئ... لكن كلُّ ما عليك أن تفهمه الآن أنَّ ذكرى لم تكن مذنبة يومًا، ولا أخطأت بحقِّك، ولن أكذبك فأنا قد حاولت معها، لكنَّها كانت جبلًا منَ الحياء والأخلاق، فوالله الذي لا إله إلا هو لم أحظى منها ولو بابتسامة واحدة، لذا

تركتها من رأسي؛ لكن ذكرى ضحيَّة، أجل.. ضحيَّة يا فارس، ضحيَّة لعبة أنا بالأصل جزء منها، خطَّطَت لها ضحى أختي، وإذا أردت التفاصيل عليك أن تلتقي بضحى لتفهم كلَّ شيْء، لأنَّ دوري كان متوَقِّف عند حدِّ تلقِّي الرسائل والصور التي أرسلتها ضحى وليس ذكرى كما فهمت، ثمَّ أريك إيَّاها..

اذهب يا فارس واعتذر من ذكرى قبل فوات الأوان.

- لماذا الآن؟! لماذا؟!

- لأنَّه حدث لي ما أوجعني بصدق، فتذكَّرت ما سبَّبْته لك ولذكرى من جراح، لذا كان منَ الواجب أن أصلح اليوم ما أفسدته بالأمس.

تذكَّر فارس أنَّه اتصل بذكرى ليخبرها بقرار الطلاق، تألَّم لما فعل، نزل فارس من منزله مسرعًا، استقلَّ سيارته، كان يسوق بأقصى سرعة، وصل منزل خالته، فتحت له..

- أين ضحى؟ أين؟
- اجلس يا بني أوَّلًا!
- لا وقت لديَّ..
- لقد خرجت منذ ساعتين، على وشك أن تعود.
- أين هي؟ سأذهب أنا لها..

لكن في ذلك الوقت كان مفتاح ضحى يدور في الباب، فقالت أمُّها:

- ها هي قد وصلت.

- أهلًا بك يا أستاذة ضحى!

قالها فارس بتهكم، وهو يضغط على أسنانه، ود لو يلكمها على وجهها، لولا احترامه لخالته.

- ماذا هناك يا فارس؟

- لا، أنا من ينتظر الإجابة منك يا ابنة خالتي!

ردت بتردد واضح، وعيناها تتأرجحان؛ هربًا من الحقيقة التي تعلم أنَّ فارس جاء لأجلها:

- إجابة ماذا؟

- لماذا فعلتِ بي هذا وبذكرى؟! بماذا آذيناك؟!

- فـ.. فـ.. فـ.. فعلت ماذا؟

- لا تنكري! أحمد اعترف بكلِّ شيْء، جئت فقط لأعرف التفاصيل.

- أحمد الغبيُّ! غبي مثلك! كلُّكم أغبياء! نعم.. أحبُّك يا فارس، لكنَّك غبي أو تدَّعي الغباء! تعاملت معي كما لو أنِّي لم أكن موجودة، بينما أنا كنت أموت كلَّ يوم تبتعد فيه؛ لذا كرَّست جهودي لِلانتقام من تلك الحمقاء التي أخذتك منِّي.. ذكرى بالطبع!

- يالبشاعتك يا امرأة!

- طلبت من مارفي -صديقة ذكرى التي تزوَّجت صديقي مينا منذ فترة- أن تهدي ذكرى تلك الثياب التي اخترتها أنا بعناية، ثمَّ أمرتها بأن تأخذ لذكرى صورًا بهذه الثياب، لكن على جوَّال ذكرى؛ لأنَّني متيَقِّنة بأنَّ ذكرى الحمقاء ستنسى أمر هذه الصور.. تركت الأمر عدَّة أشهر حتَّى لا يخطر ببال أحد أنَّه مَلعوب، ثمَّ ذهبت لزيارة خالتي، سرقت أموالها حتَّى تتَّهم ذكرى فيها، لكنَّها كانت تثق بها أكثر ممَّا تثق بنفسها! فسحبت جوَّال ذكرى على حين غفلة، وأرسلت ما رأيته لأحمد على حين غفلة منَ الجميع.. كان كلُّ شيْء يسير وفق ما خطَّطْت له، إلى أن أفسد أحمد كلَّ شيْء بحماقته!

- شيطانة! أنتِ شيطانة!

تركهم فارس وغادر، ذهب إلى بيت أبي ذكرى، أخذ يدقُّ الجرس كثيرًا، لكنَّ أحدًا لا يجيب! خرجتِ الجارة، فأخبرته بأنَّه ذهب مع ابنته لأنَّ المخاض أتاها منذ ساعة تقريبًا.. اتصل فارس بالحاجِّ ياسين ليعرف عنوان المشفى، وصل فارس في نفس الوقت الذي خرجت فيه ذكرى من غرفة العمليَّات، وكانت قد وضعت طفلتها بسلام، واستقرَّت على أن تسمِّيها "فريدة" كما اتَّفقت هي وفارس على ذلك الاِسم.

وصل فارس، وجد عمَّه يجلس أمام غرفة العمليَّات، سلَّم على عمِّه قائلًا: كيف حالك يا عمِّي؟ وذكرى.. أين هي؟

أشار الحاجّ ياسين إلى غرفة ذكرى، ولَّى فارس إلى هناك، قبَّل ذكرى، ثمَّ قبَّل فريدة، بكت ذكرى من قدر الله، فلقد كانت ابنتها منذ دقائق بلا أب! أمَّا الآن وقد عاد فارس.. بكى فارس -أيضًا- نادمًا أشدَّ ما يكون الندم على ما اقترف من خطأ في حقِّ ذكرى، قائلًا:

- سامحيني يا ذكرى! لقد كنت أحمق حينما صدَّقت، كنت غبيًّا! لكنَّه نزق الغَيْرة، عمى الشكِّ، اليوم عرفت كلَّ شيْء، تأكَّدت يا ذكرى من براءتك.. سامحيني أرجوك! سامحيني!

نزل فارس قليلًا وقبَّل يدي ذكرى، ثمَّ قدميها.. قالت ذكرى:

- كنت أنتظرك في كلِّ وقت يا فارس، كنت أعلم أنَّ الله لن يضيِّعنا، أهلًا بك زوجًا وحبيبًا وصديقًا من جديد، انظر إلى فريدة.. إنَّها تُشبِهك تمامًا.

- بل هي نسخة منك، الحمد لله.. الحمد لله..

مهما اسوَدَّتِ الدنيا في وجهك، وأصبحت حالِكة حيث إنَّه لا يوجد بها قبس من نور، ثق بأنَّ الله سيجعلها تضيء لأجلك ثانية، فالله لن ينسى عبده.

الفصل الأخير

"إلى فِلْذات الأكباد، وزينة الحياة الدنيا..

بالله كونوا بخير، كيما نكون بخير".

كم منَ الوقت مضى وأنا على حالتي تلك، مستلقية على الكرسيّ، وقد أسدِل شعري للخلف؟

ثلاث ساعات مرَّت.. عبثت فيها الذكريات برأسي، حلوُها ومرُّها، لم يكن هناك مشهد في شريط ذكرياتي -إن صغيرًا أو كبيرًا- إلَّا ورأيته كما لو أنَّه يحدث الآن..

عادت فريدة إلى غرفتها بعدما ذهبت نور صديقتها، لتجدني على حالتي تلك، والصفحة مفتوحة كما تركَتْها، بل زاد فيها شيْء آخر، هو أنَّ رسائل كريم هذا مفتوحة على مِصراعَيْها أمام عيني، وضعت يدها على قلبها، فنبضاته تتسارع، أستشعرها من على بعد تلك الخطوات التي تفصلها عنِّي..

قلت في نفسي:

- يا لبشاعة التاريخ الذي يُعيد نفسه بحذافير الماضي! ابتلعتُ غصَّة الماضي السحيق، لا يمكنني أن أخبر ابنتي قرَّة عيني بشيْء من ذلك الأمر، كي لا أسقط من نظرها الذي طالما اعتلى منبري ليتَّخذ منِّي أسوة حسنة.

وما بين هوَّة الماضي الأليم، وصاعقة الحاضر الأكثر إيلامًا، استجمعت أخيرًا صوتي الذي تحَشْرَج في أعماق حلقي، وكتمت أنفاسي التي أعلنت عن ذلك السباق الجامح الذي يحدث بداخلي، وكتمت أدمعًا هي أحقُّ بالثوران الآن من كلماتي، لكنِّي أرجأتها لحينٍ آخرَ، ثمَّ قلت بصوت مبحوح ينبئ عن شرخ عظيم هناك في أعماق

قلبي:

- تعالي يا فريدة..
- أمّي.. أمّي..
- سأستمع إليكِ جيّدًا بعدما تستمعين إلي أوّلًا.
- حسنًا أمّي..
- إليكِ يا صغيرتي التي لم تتجاوز العشرين بعد، إنَّ العمر لا يُعاش إلَّا مرَّة واحدة، وأوقات السعادة لا يمكنك أن تقومي بعمل استرجاع لها.. "الفلاش باك" كما تقولون، والحبُّ مشروع يا عزيزتي، فلو لم يكن هناك حبٌّ لما خلق الله لنا قلوبًا تخفق، أليس كذلك؟
- بلى يا أمّي.. بلى..
- تدرين يا فريدة، لقد حرمني الله من أمّي في وقت كنت أشدَّ ما أكون في حاجة إليها، ألم نكن صديقتين مقرَّبتين؟ لماذا نزعت عهد الصداقة، في حين أنكِ تعلمين أنّي لن أخذلك يومًا؟!
- أعتذر!
- لم نجلس جلستنا تلك ليعتذر أحدنا للآخر، أنا دومًا كنت أشبِّه هذا الموقع باللِّصِّ، لكن تركتك تسبرين أغواره بنفسك، تكتشفين إن كان السوء فيه أم فينا.. اكتشفتِ شيئًا؟
- لم أكتشف بعد يا أمّي، لكن من تجربتي الصغيرة معه لم أكن سعيدة مُطلقًا!

- لم يكن المجتمع بمعيب يومًا ما يا عزيزتي، فالمجتمع يشبه تلك الفاكهة التي تعفَّنت عندما تركناها خارج الثلَّاجة، ثمَّ عدنا لنسأل أنفسنا: لماذا تعفَّنت هكذا؟! وتناسينا أنَّنا السبب..

- صدقتِ.

- لنعود ثانية للحديث عنِ الحبِّ، ألم أقل إنَّه مشروع؟ بلى قلت، لكنَّه وفق شرائع وقوانين سنَّها الله وألزمنا بها، الحبُّ الذي يأتي منَ الشاشة يذهب منها أيضًا، لكن بعدما يترك جرحًا غائرًا ينزف في أعماق القلب.

- لست متأكِّدة يا أمِّي إن كنت أحبُّه أصلًا..

- أعلم ذلك، بل جذبك ذاك الضوء الساطع الصادر من تلك الكلمات المنمَّقة المزخرَفة، أنتِ يا صغيرتي كنت تقفين على الحافة، لولا أن أرسلني الله في الوقت المناسب.

- الحمد لله أمِّي أنَّك معي في كلِّ وقت.

- ربَّيْتك فأحسنت تربيتك، لكن نسيت أن أخبرك بأنَّ النفس اللوَّامة إن لم تكن أعلى منَ النفس الأمَّارة بالسوء خسفَتْنا تلك النفس الأمَّارة بالسوء.

- كانت موجودة يا أمِّي، كانت تلحُّ علي حتَّى الآن كي لا أذهب للقاء كريم.

- أخاف أن أخسرك يا صغيرتي، لذا أسمعك تلك الكلمات، علَّها تكون نبراسًا لك تهتدين به في متاهات الحياة.

اقتربت فريدة منِّي، قبَّلت يدي ثمَّ عانقَتْني، وشرعت في حذف

حسابها من على "الفيسبوك"، قلت:

- فريدة.. لا تفعلي شيئًا إلَّا وأنت مؤمنة به.

قالت بنبرة كلها ثقة:

- مؤمنة أشدَّ ما يكون الإيمان بما أفعله الآن يا أمِّي.
- حسنًا يا صغيرتي، سأذهب لأعدَّ العشاء.
- دقيقة أمِّي..
- ماذا هناك؟
- سآتي لأعدَّه معك.

دخل فارس وسمعنا ونحن نتحدَّث عنِ الطعام، سلَّم علينا أوَّلًا، ثمَّ قال:

- على سيرة الطعام، سنتعشَّى بالخارج اليوم.
- هكذا يكون الأب الجيِّد.

تعانقنا جميعًا، ضحكنا اليوم ضحكة من أعماق القلب، وكأننا لا نخفت إلا لنزهر من جديد.

تمت بحمد الله تعالى

دعاء عبد الله الجابي